العدد/ (٢٤)

٢٠١٠

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها بيت الحكمة العراقي

عالم الحكمة

بيرتي ج بيلتو

Pertti J. Pelto

دراسة الانثروبولوجيا

المفهوم والتاريخ

ترجمة كاظم سعد الدين

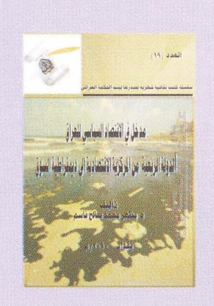
بغداد - ٢٠١٠ م

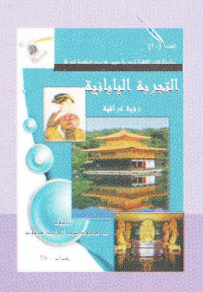
مجلات بيت الحكمة









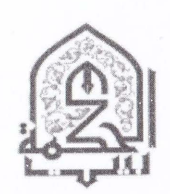


سلسلة عالم الحكمة



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها بيت الحكمة العراقي

(٢٤)



دراسة الأنثروبولوجيا

المفهوم والتاريخ

تأليف

Pertti J. Pelto

ترجمة

كاظم سعد الدين

بغداد
٢٠١٠

اسم الكتاب / دراسة الانثروبولوجيا
ترجمة/ كاظم سعد الدين
الناشر / بيت الحكمة
الطبعة الأولى / ٢٠١٠م

ص ب (٥٣٦٤٠) مكتب بريد الاقصى/ هاتف /٠٧٤٠٠١٩٠٨٤٥
Email:- baytal_hikma@yahoo.com

info@baytalhikmairaq.org



الآراء المنشورة في هذه السلسلة تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي بيت الحكمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمِينَ*

الرحَّمَن الرَّحِيمِ* مَالِكِ يَوّمِ الدِّين*

إيَّاكَ نَعبُدُ وَإيَّاكَ نَستَعِنُ* آهّدِنَا الصِرَاطَ المُستَقِيمَ*

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِم

وَلَا الضَّآلِينَ*

صدق الله العظيم

سلسلة عالم الحكمة

منذ أن تم رفع قواعد بيت الحكمة سنة ٨٠٠م وهو يقوم بعملية رفد الحضارة الانسانية والحركة العلمية في العالم بما ينتجه الفكر الانساني في مختلف فروع المعرفة والحكمة.

ولا يزال يمارس دوره الريادي في الاسهام الفاعل في ذلك وفي اعادة بناء العراق ومقومات التحول السياسي والاقتصادي والاجتماعي واحياء التراث العربي والاسلامي بما يدعم عملية التعايش السلمي بين الشعوب والاعتراف بالاخر والحوار الحضاري بين الاديان والشعوب والتلاقح بين الحضارات.

ومن اجل رفد المسيرة الانسانية الى غدٍ افضل ودعم الحركة العلمية ، واثارة روح الابداع في الشخصية الانسانية فإن بيت الحكمة ارتأت أن تؤسس لسلسلة ثقافية بأسم "عالم الحكمة" تنفتح على كل الافكار والاتجاهات وتدخل كل فروع الحكمة والمعرفة وتتعامل مع الآخر أياً كان الآخر بروحٍ علمية موضوعية هادفة الى البحث عن الحقيقة ونشرها بأمانة وآملاً في المساهمة في نهضة الامة وبناء الانسانية على اسس علمية متميزة

ومن الله تعالى نستمد العون والتوفيق..

أ.د.شمران العجلي

رئيس مجلس امناء بيت الحكمة

تقديم

لم يكن ماركو بولو ولا ابن بطوطة ولا غيرهم من الرحالـة الاوائل يعلمون ان ملاحظاتهم الميدانية عـن الشـعوب والاجنـاس البشرية التي زاروا بلدانهم ستكون نواة لعلم جديد بعـد خمسـة او ستة قرون.

وفي منتصف القرن التاسع عشر، وحين بدأت خيوط علـم الانسان تشكل نسيجاً متميزاً، كان الانثروبولوجيون القدامى يعتقدون انهم معنيون (بكل شيء عن الانسان).

غير ان قراءة سريعة للسجل الانثروبولوجي على مدى اكثر من قرن من الزمان توضح لنا عدد مسار هذا العلم الذي يمثل احدث حلقة في سلسلة العلوم الاجتماعية، ما يزال يتداخل عملياً مع علـم الاجتماع، برغم وجود عدد من الاراء حول علاقة العلمين بعضـهما ببعض.

وليس ادل على ذلك من رأي ذكره الرائـد الانثروبولـوجي (رادكليف براون) بان الانثروبولوجيا الاجتماعية ما هـي الا علـم اجتماع مقارن.

بيد ان اهم ما يميز الحقل الانثروبولـوجي عـن الحقـول الاجتماعيـة المقاربـة هـو البعـد التطبيقـي واعتمـاد الباحـث الانثروبولوجي على الدراسة الحقليـة وعلـى اسـلوب الملاحظـة بالمشاركة، وهو الاسلوب الدراسي الذي يعود الفضـل فـي تثبيـت دعائمه الى الرائد الانثروبولوجي، (برونسلاو مالينوفسكي).

ومع ذلك، ومع ان الانثروبولوجيا العامة تقف فـي مفتـرق طرق عديدة، يؤدي بعضها الى تشابك مع علوم اخرى، فقد حققـت

الانثروبولوجيا خلال المائة سنة المنصرمة نمواً وازدهاراً ووضوحاً في الرؤى، وتنوعاً في ميادين الدراسة وفي اساليبها من اجل فهم اوسع لجوانب الحياة البشرية واستيعاب ظواهر الانسان طبيعياً وحضارياً واجتماعياً.

لذلك كان على قسم الدراسات الاجتماعية في بيت الحكمة ان يولي بعضاً من اهتمامه ويخصص جزءاً من برامجه ومفردات خططه السنوية لتسليط الاضواء على موضوع علم الانسان انطلاقاً من كونه الحقل الدراسي الاكثر قرباً من علم الاجتماع.

هذا الكتاب محاولة اولية للتعريف بالحقل الانثروبولوجي مفهوماً وتاريخاً، عسى ان يكون عوناً لطلاب المعرفة والعلم، ودليلاً للباحثين المتخصصين في دراساتهم الحقلية والنظرية.

أ.د. كامل جاسم المراياتي

قسم الدراسات الاجتماعية- بيت الحكمة

دراسة الانثروبولوجيا

تمهيد

ريموند هـ . موسيك

و

فنسنت ر. روجرز

(محررا سلسلة منتدى العلوم الاجتماعية)

اوهايو – الولايات المتحدة

لاحظ كلايد كلو كهون في كتابه البليغ "مــرآة للإنســان" ان الانثروبولوجيا لم تعد محض علم الأقدمين والماضي السحيق". صار هذا المفهوم اليوم اكثر صدقاً من الوقت الذي كتب في سنة ١٩٤٩. فقد حقق الانثروبولوجيون اهتماماً متواصلاً بالماضي، ومع ذلك فان الحاضر ايضاً يفرض اهتمامهم بما في البلاد (أميركا) وأماكن كانــت تعد قاصية قبل زمن غير بعيد باسماء قد تبدو غريبة لبعض الناس. في عصر ابداعات مثيرة للنقل والاتصال وتزايد الصلات الوثيقة بين سكان هذا الكوكب المذهل، نــال العــالم الانثروبولــوجي الاهتمــام والاحترام. الانثروبولوجيا كأسس علمية للوفرة، طافحة بقوة بعيــدة فريدة ثاقبة جديرة بالاعتبار.

اننا نعتقد ان النتاجات والعمليات المختارة بعناية- او الافكار وطرائق التفكير والعمل- المتطابقة مع الانثروبولوجيــا يمكــن ان يفهمها كثير من المتعلمين على درجات متنوعة. هذا الكتــاب ذروة جهود تعاونية طويلة لعالم في الانثروبولوجيا، وأستاذين تربــويين،

الفصول الخمسة الاولى في الحقل نفسه كتبها الـدكتور بيرتـي ج. بيلتو في قسم الانثروبولوجيا في جامعة منسيوتا. تناول دكتور پيلتو ولادة الانثروبولوجيا ونموها وعلاقاتها بعلـوم اجتماعيـة اخـرى واهتماماتها ونظرياتها ومساعيها ونتائجها. سيجد القارئ ان دكتور پيلتو قد قام بدراسة نافعة تغني المعرفة.

الفصل السادس (الأخير) عن منهج تدريس الانثروبولوجيا كتبه الدكتور ريموند هـ. مويسك، الأستاذ في كليـة التربيـة فـي جامعة اوهايو الحكومية، ودكتور فنسنت ر. روجرز، الاسـتاذ فـي كلية التربية في جامعة منيسـوتا. يركـز البروفيسـور مويسـك والبروفيسور روجرز على مجموعة مـن التصـميمات الأساسـية المستفادة من الفصول الخمسة السابقة، ويقترحان ويوضحان طرقاً عدة يمكن للمدرسين استخدامها لمساعدة طلبتهم فـي فهـم هـذه الملاحظات الانثروبولوجية.

دكتور جورج د. سپندلر من قسم الانثروبولوجيا في جامعة ستانفورد هو المستشار الأكاديمي لهذا الكتاب.

دراسة الانثروبوجيا

المحتوى

الفصل الثالث:

الفصل السادس:

الفصل الأول
دراسة الإنسان

"في مستهل القرن العشرين كان العلماء المهتمـون بمعـالم تاريخ الانسـان غيـر الاعتياديـة والمثيـرة والمحيـرة يعرفـون بالانثروبولوجيين وهم اولئك الذين كانوا يبحثون عن ابعد اسـلاف الانسان وعن طراودة هوميروس وعن المـوطن الاصـلي للهنـود الامريكيين وعن العلاقة بين نور الشمس الساطع ولون البشرة وعن اصل العجلة وعن الدبوس الامين وعن الفخـار. ارادوا ان يعرفـوا "كيف توصل الإنسان الى ذلك": لماذا يحكم بعض الناس ملك، ويحكم بعضهم شيخ مسن ويحكم آخرين محاربون ولاتحكم النسـاء أحـداً؟ ولماذا تنقل بعض الشعوب الملكية الى سلسلة نسب الذكور وبعضها الى سلسلة نسب الإناث وآخرون الى كلا الجنسين بالتساوي؟ ولماذا يمرض بعض الناس ويموتون حين يعتقـدون انهـم مسـحورون؟ ويضحك آخرون من الفكرة ذاتها؟ بحثوا عن القضايا الكلية في حياة البشر وسلوكهم. واثبتوا ان الناس في مختلف القـارات والمنـاطق كانوا متشابهين اكثر من كونهم مختلفين واكتشفوا نظائر كثيرة فـي تقاليد البشر يمكن تفسير بعضها بالاتصال التاريخي. بقـول آخـر، أصبحت الانثروبولوجيا علم التشابهات والاختلافات البشرية (كلايد، مرآة للإنسان، ١٩٤٩).

يبين اوسع تعريف للانثروبولوجيا وأوضـحه بجـلاء إن " الانثروبولوجيا هي دراسة الانسان واعمالـه" وان ذلـك التعريـف الواسع وحده يمكن في الحقيقة ان يضم المجالات جميع الدراسـات

الميدانية المتنوعة والاهتمامات النظرية والمجالات التعليمية لأناس يطلقون على أنفسهم اسم الانثروبولوجيون. وأننا نجد في مناهج دراسة الانثروبولوجيا في الجامعات الرئيسة ان هذا الحقل من الدراسات ينقسم عادة الى فرعين رئيسين- الانثروبولوجيين الطبيعية و الانثروبولوجيا الثقافية (الاجتماعية).

الانثروبولوجيا الطبيعية:

منذ ان نشر لينليوس العالم السويدي العظيم بالتاريخ الطبيعي تصنيفه البارز للنباتات والحيوانات في القرن الثامن عشر، وضع الانسان في قائمة مع الحيوانات، وعُدت دراسة الانسان فرعاً من علم الطبيعة. وإحدى معالم الانثروبولوجيا البيولوجية (الإحيائية) المهمة في فحص الدليل المتعدد الجوانب لتطور الإنسان من الاشكال "الدنيا" في حياة الحيوان. لهذا فإن الدروس التمهيدية في الانثروبولوجيا الطبيعية غالباً ما تبدأ بمواد من التشريح المقارن للإنسان العاقل (هو مو سابينز) وابناء عمومته الاقربين القردة العليا والقردة (السفلى) وكلهم أعضاء في رتبة اللبائن التي تسمى الرئيسيات ثم تجري بعد ذلك دراسة دليل متحجرات التطور البشري في شكل العظام المتحجرة لانسان نياندرتال وإنسان جاوة وعدد كبير من الشظايا الأخرى من الإنسان والإنسان القرد الذين عاشوا قبل مئات الآلاف من السنين. يقودنا الاهتمام أيضاً بالصلات البايولوجية للإنسان بالرئيسيات الأخرى الى دراسة مقارنة للسلوك الاجتماعي للرئيسيات الأدنى من البشر امثال الغوريلا والشمبانزي والبابون.

تنقسم التنوعات من أبناء الإنسان العاقل عادة الى العنصر المغولي والعنصر الزنجي والعنصر القفقاسي وعدة أصول عنصرية

اخرى، وهي من الاهتمامات الرئيسة لدى الانثروبولوجيين الطبيعيين. لقد غيرت التطورات الحديثة في علم الوراثة دراسة التصنيفات العنصرية من الفهرسة غير الواضحة للسمات الواضحة (لون البشرة ولون العين وشكل الرأس والطول. الخ...) الى بحث مثير عن أنماط في الوراثة الجينية لأصناف الدم ومقاومة أمراض خاصة وفحص التكيف البايولوجي لمختلف ضروب المناخ في العالم.

وفضلا عن هذين الخطين المعروفين نسبياً اكثر اهتماماً بدراسة النمو البشري وبنية الجسم (الوظيفية) ببناء الجسم وعد المسائل الفسلجية (الوظيفية) التي تجعل الانثروبولوجيا اقرب صلة بميادين علم التشريح وعلم الإحياء الإشعاعي وعلم المصول وعلم الفسلجة والطب العام.

الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية:

السمة التي تميز الإنسان عن الحيوانات الأخرى هي إن نمط الحياة البشرية يستند الى "ثقافة" – أنماط من السلوك المتعلم اجتماعياً، المستند الى عمليات رمزية، وقد تمتلك الحيوانات الأخرى بعض الامور البدائية من الثقافة ولكن كل سلوك بالنسبة الى الإنسان ثقافي شامل، وان أوجه الثقافة البشرية المختلفة (كتاريخ الثقافة واللغة والبنى الاجتماعية والشخصية، الخ...) تكون باعثاً على إيجاد سلسلة من الميادين الفرعية التي يمكن تجميعها في طرائق متنوعة لتدريس الانثروبولوجيا.

علم الآثار:

يُضم علم الآثار أحياناً الى الانثروبولوجيا الطبيعية لإغراض التدريس وهو ثقافي أكثر من كونه بيولوجيا لان عالم الآثار يدرس المعلومات عن الثقافات البشرية التي يمكن الحصول عليها من التنقيب الواعي عن المساكن القديمة والنصب والأشياء الفنية والأدوات والأسلحة وأعمال الإنسان الأخرى التي غطتها أتربة الزمن.

يمكن ان تشمل دراسة علم الآثار علم اثار العالم الجديد الذي عني ببقايا ثقافات الهنود الأمريكيين لما قبل التاريخ، والعالم القديم في ما قبل التاريخ ويعني بدراسة الأدوات الحجرية وفن الكهوف وشواهد اخرى عن الحياة البشرية في خلال المليون سنة واكثر من العصور الحجرية العظمى وبدايات الحضارة في الشرق الأدنى وتخصصات متنوعة ضمن هذه الدراسات الواسعة. وبما ان علماء الانثروبولوجيا يعنون بـ "التنقيب عن ما في الإنسان" فلهم صلات مهمة بالتاريخ والمؤرخين وفي الحقيقة ان "علماء الانثروبولوجيا الكلاسيكيين" الذين ينقبون في آثار الحضارات القديمة في حوض البحر المتوسط والشرق الأوسط في (طروادة وكريت ومقابر مصر وغير ذلك) نجدهم في العادة في اقسام انثروبولوجيا، وان الاهتمام بشواهد الماضي التي يعثر عليها في اديم الأرض تربط علماء الانثروبولوجيا بعلماء الجيولوجيا وعلماء الاحافير (علم الأحياء المتحجرة) وعلماء الاحافير النباتية المتحجرة، وعلماء طبيعة الأرض.

علم اللغة (الالسنية)

علم اللغة هو دراسة اللغة- وهي نظام الاتصال البشري الراقي الإتقان. ولا تُعنى هذه الدراسة بتعليم الكلام في اللغات الأجنبية بطلاقة ولكنها تهدف الى الوصف العلمي الدقيق للغات ومقارنتها. ولعل أقدم اهتمام بعلم اللغة تطور حول دراسة العلاقات بين اللغات ولاسيما حين اكتشف ان اغلب اللغات الأوروبية على الرغم من انها لايتم التفاهم بها فيما بينها، تنحدر من لغة جدة واحدة مشتركة هندو اوربية.

وقد أدت التطورات الحديثة الى صلات متزايدة بين علماء اللغة وعلماء النفس والفلاسفة وعلماء الرياضيات في متابعتهم أمثال هذه الموضوعات: علم اللغة النفسي وعلم ما وراء اللغة وعلم الدلالة ونظرية الاتصالات.

الاثنولوجيا:

"شعوب وثقافات افريقية" و "اثنولوجيا او شينيا" و "هنود امريكا الشمالية" وعدد من الموضوعات المتشابهة تصور اهتمام الانثروبولوجيا الثقافية بأنواع لاتحصى من السلوك البشري التي وجدت على وجه الكرة الأرضية. من هذا المدى الذي يشمل العالم جميعاً في الثقافات والشعوب يبحث علماء الانثروبولوجيا عن أوجه التشابه والاختلاف التي تقدم مفاتيح لفهم "الطبيعة البشرية" وتاريخ الثقافة البشرية.

ان الموضوعات التي يقدمها علماء الانثروبولوجيا الثقافية مقارنتهم المنهجية وبحوثهم النظرية تتخذ عنوانات متنوعة مثل

"علم الاقتصاد المقارن" و "الدين المقارن" و "التغيـــر – الثقـــافي) و "القانون البدائي والحكومة" و "البنية الاجتماعية" وهلم جرا. وحـــين تتشابك النظرية السيكولوجية تشابكاً نظامياً متماسكاً مـــع هـــذه المعطيات الاثنولوجية المقارنة فإننا نجد موضوعات تحت عنـــاوين "الثقافة والشخصية" و"الانثروبولوجيا النفسية".

وكلما انشغل عالم الانثروبولوجيا في وصف صريح، مباشر للأنماط الثقافية في مجتمع معين فانه يكون معنياً بـــ "الاثنوغرافيـــا" وحين تنظم مواده على وفق أنظمة اجتماعية فإننا نستطيع ان نســـم البحث (او الموضوع) بـــ "الانثروبولوجيا الاجتماعية" مشيرين بذلك بين أشياء أخرى الى الاثر في الأمريكيين مـــن بعـــض التطـــورات الممتعة في الانثروبولوجيين فـــي أســـماء موضـــوعاتهم. مـــثلا " الاثنولوجيا الموسيقية" و "التراث الشعبي المقارن" و (الفن البدائي) وان الموضوعات التي تتركز فيها المعرفة والنظرية الانثروبولوجية في المشكلات العملية لعصـــرنا المعقـــد تســـمى " الانثروبولوجيـــا التطبيقية".

الانثروبولوجيا تقاطع ثقافي اساسي:

غالباً ما تكون العلاقة الاولى لانثروبولوجي المستقبل افتتان صبي او صبية بالهنود والقارات المفقودة والاستكشافات في إفريقيا وأهالي جزر البحار والاستكشافات في أفريقيا واهالي جزر البحـــار الجنوبية الغربيين. هذا الافتتان نفسه بما هـــو "غيـــر اعتيـــادي" و "مختلف" بين الشعوب والثقافات حث كثيراً من الانثروبولوجيين على القيام بعملهم الميداني الاول الشامل. وحين يضاف الـــتعطش الـــى الملاحظة المنهجية والبحث المقارن الى الدوافع المشبوبة المبكـــرة

فان الحوافز من اجل انثروبولوجيا ناضجة تبدأ بالظهور. ليس حب الاستطلاع والافتتان بما هو غريب المبررات الرئيسة لاهتمام العالم الانثروبولوجي بالشعوب البدائية على اي حال. ان اكثر التغيرات جوهرية هي ان المجتمعات غير الغربية توفر مدى واسعاً من اختلاف السلوك. وتقدم المؤسسات الاقتصادية والمنظمة العائلية والمعتقدات والشعائر الدينية والسحر والمنجزات الفنية وانماط الشخصية من كل نوع، تقدم الدليل على تاسيس الثابت والمتغير في الثقافة البشرية. ويشعر الانثروبولوجي ان المبادئ الأساسية في الأنظمة الثقافية والاجتماعية يمكن اكتشافها من خلال دراسة المدى الكامل لأنماط السلوك البشري. وثمة سبب آخر لدراسة الانثروبولوجي للمجتمعات غير الغربية إلا وهو أنها تزوده بنوع من المحيط "المختبري" حيث يمكن ملاحظة شيء يقترب من المجال الكلي للنظام الثقافي في جماعة محلية صغيرة ليست محض جزء من مجتمع عصري واسع.

وقد أكد بعض الانثروبولوجيين ان ميدان دراستهم يعني بالشعوب البدائية على وجه الحصر، بيد ان اغلب الانثروبولوجيين يرون فرع معرفتهم دراسة عامة للإنسان من ناحية ثقافة بيولوجية وقد ابتعد البحث الانثروبولوجي الحديث كثيراً عن معنى التركيز الاول على المجتمعات غير المتعلمة. فصار جزء كبير من البحث الانثروبولوجي في فترة ما بعد الحرب في الجماعات الفرعية وأجزاء متخصصة من مجتمعات ريفية في أوربا الحديثة وأميركا اللاتينية واليابان والهند، فضلاً عن دراسات انثروبولوجية

لموضوعات أمثال "ثقافة مستشفى الطب النفسي" و "حانات المدن" و "موضوعات في الثقافة الفرنسية" و "ونظام القرابة الامريكي".

تكامل الانثروبولوجيا:

"من الجلي إن الانثروبولوجيا، مهما كانت دقيقة في تعاملها مع الحقائق، فهي تهدف إلى إن تكون علماً متناسقاً على نحو أساسي- إننا نحن الانثروبولوجيين لن يتسنى لنا معرفة الصين معرفة مركزة كما يعرفها العالم المختص بشؤون الصين، أو معرفة الأسعار والائتمان والصيرفة كما يعرفها الاقتصادي، أو معرفة الوراثة كمعرفة عالم الاحياء بعلم الوراثة اننا نواجه ما ينظر اليه هؤلاء العلماء الافذاذ نظرة عرقية متقطعة لو تسنى لهم النظر الى ذلك: لكي نفهم الى حد ما كيف تكون الحضارة الصينية والاقتصاد والوراثة البشرية وعشرات من فروع المعرفة المتخصصة الراقية التطور على علاقة متبادلة في كونها جميعا اجزاء من "الانسان"- تتدفق من الانسان وتتركز فيه وتكون من انتاجه".

بهذه الكلمات عبر الفريد ل.كروبير في "الانثروبولوجيا اليوم" ١٩٥٣.. احد اساطين علم الانثروبولوجيا في هذا القرن، عن فكرته ان مادة الانثروبولوجيا تستقى من مصادر مختلفة كثيرة للمعرفة وان اهتمامات الانثروبولوجيين في البحث وانماط دروسهم التي يلقونها تعكس هذا التنوع العظيم، غير انه في مواقف كثيرة نجد اليوم ميولاً نحو تشظية الفرع الواحد من فروع المعرفة: فقد أصبحت الانثروبولوجيا الطبيعية، على سبيل المثال، أكثر تخصصاً وتعقيداً في بحوثها الفسلجية والتشريح والوراثة الخاصة بالإنسان ويجد اغلب علماء الانثروبولوجيا الطبيعية أنفسهم ابعد فابعد عن

الصلة بأحدث البحوث والمعلومات في هذا الحقل. وفي الوقت نفسه يعاني العلماء في الانثروبولوجيا الطبيعية ضغطاً عظيماً لتركيز جهودهم في مجالات علم الإحياء الإشعاعي وكيمياء وفيزياء الوراثة البشرية والحقول الأخرى المتعلقة بها التي تزداد جميعاً تطوراً سريعاً وهكذا قد يصبحون غرباء نسبياً عن اهتمامات وبحوث علماء اللغة وعلماء الانثروبولوجيا الثقافية وعلماء الآثار، زملائهم الأساتذة في أقسام الانثروبولوجيا. وكذلك أصبحت دراسة علم اللغة شديدة التخصص، ذات مفردات معقدة في الوصف ووسائل شبه رياضية في تحليل بنية اللغة ومناقشات فلسفية وسيكولوجية اشد تعقيداً من فرضيات اساسية في هذا الميدان. اذا تأملنا التاريخ الطبيعي لمختلف فروع العلم والفلسفة رأينا ان تباين ميادين الدراسة وافتراقها نتيجة طبيعية للمعرفة المتزايدة عن العالم الذي نعيش فيه. من اليسير اذن بيان ان الانقسام التدريجي في فروع الانثروبولوجيا المختلفة الى اقسام منفصلة هو امر طبيعي كافتراق الكيمياء والفيزياء وعلم الاحياء من الوحدة الاولى للعلوم العامة، بيد ان معظم علماء الانثروبولوجيا ولاسيما في الولايات المتحدة يتشبثون بقوة بـ"مبدأ الكليات" كما اعلنه الفريد كروبير. وعلى الرغم من الميول نحو التخصص فان العلاقة القوية المتبادلة بين خصائص الانسان البدنية وأجهزته السلوكية لايمكن تجاهلها. ومن اي زاوية ينظر الى طبيعة الكائن البشري فانه لايمكن ان ينكر ان سلوك الإنسان الاقتصادي ومؤسساته الدينية والمعالم الثقافية الأخرى تكون متأثرة تأثراً عميقاً بخصائصه البيولوجية النفسية. وكذلك فان جسم

الانسان كجهاز طبيعي يتأثر بدينه وعمله وعائلته وحقائق اجتماعية وثقافية اخرى.

تعنى احدى مجالات الدراسة التي تصور تكامل دراسة الانسان تصويراً حيوياً بمشكلات المرض العقلي. فقد اتخذت في سنوات ما بعد الحرب خطوات مهمة في تطوير نظرية الكليات في الاضطراب النفسي. ان تطوير العقاقير والمعالجات العضوية الاخرى يبين بوضوح صفات الانسان البيولوجية بوظائفه السيكولوجية. وان التطورات الخاصة في حقل الطب السيكوسوماتي (الذي يبحث في الاضطرابات النفسية والعقلية) تقدم دليلاً اضافياً على هذه الروابط. وفي الوقت نفسه فان الاضطرابات العقلية عند الاسكيمو وشعوب افريقيا واسيا ومناطق اخرى شواهد اخرى على نسب مختلفة. وانواع من الامراض العقلية في اجزاء من المجتمع الامريكي تبين اهمية العوامل الاجتماعية والثقافية الاخرى في مشكلات الصحة العقلية.

يتضح التكامل في المعطيات البيولوجية والثقافية في البحث الحاصل في المرض العقلي المسمى "پيبلوكتوك" الذي وجد عند اسكيمو غرينلاند. يتميز هذا الاضطراب بسلوك يتسم بالتقليد والمحاكاة الإلزاميين والكلام والصياح والبكاء وتمزيق الملابس والركض عراة في برد المنطقة المنجمدة الشمالية. وقد رفض والاس التفسير الخاص بالتحليل النفسي لهذا الاضطراب ولهذا عزاه الى نقص متكرر في الكالسيوم في غذاء الاسكيمو. ان ظروفاً اجتماعية خاصة تحدث الانهيار فيجب فهم المحتويات الخاصة في السلوك الشاذ بخصوص الأنماط النفسية والثقافية للاسكيمو ومن

الواضح ان بحث المشكلات من هذا النوع يتطلب تعاوناً حميماً بين العلوم الحياتية والنفسية والثقافية.

علاقاتها بالعلوم الاجتماعية الأخرى:

ثمة تداخل نظري وعملي عظيم بين الانثروبولوجيا والسيوسيولوجيا (علم الاجتماع) عند الممارسة. وتبدو مجالات الاهتمام المشترك في تزايد جدير بالاعتبار. ولكن على الرغم من ذلك توجد فروق عامة تفصل اهتمامات معظم الانثروبولوجيين عن اهتمامات معظم علماء الاجتماع وتشمل هذه الفروق ما يأتي:

١. يفضل معظم الانثروبولوجيين دراسة شعوب غير غربية (على الرغم من وجود استثناءات كثيرة) ويفضل معظم علماء الاجتماع دراسة معالم المجتمع والثقافة الغربية (غير ان أعداداً متزايدة من علماء الاجتماع منغمرة الآن في دراسة المجتمعات الأفريقية والهندية والصينية وغيرها، وعدداً اكبر من الانثروبولوجيين يبحثون في ثقافاتهم الخاصة).

٢. يفضل معظم الانثروبولوجيين البحث في جماعات صغيرة بأجراء الملاحظات والمقابلات مع الناس وجهاً لوجه. ويفضل معظم علماء الاجتماع دراسة شرائح اكبر من الأنظمة الاجتماعية مستعملين معلومات جمعت بالاستبيانات او استخلصت من الإحصاءات عن السكان ونسب الجريمة وأعداد العاملين وسجلات الناخبين وغير ذلك. ويشعر علماء الاجتماع عموماً براحة عظيمة باستعمال التحليل الإحصائي اكثر مما يشعر الانثروبولوجيون.

٣. يضم الانثروبولوجيون الانثروبولوجيا الطبيعية بوصفها جزءاً مهماً من علمهم ويركز علماء الاجتماع في دراساتهم على معالم الإنسان الاجتماعية على وجه الحصر.

٤. يعد معظم الانثروبولوجيين تاريخ الثقافة البشرية اهتماماً مركزياً في دراساتهم، ويترك معظم علماء الاجتماع الدراسات التاريخية للآخرين مفضلين في دراستهم موضوعات المؤسسات الاجتماعية الحديثة.

يمكن ملاحظة الفروق بين الانثروبولوجيا وعلم النفس بوضوح أكثر على الرغم من وجود مجالات تشابك متزايدة في ما بينها. فيدرس علماء النفس عادة سلوك الإفراد في مختبرات جيدة في أوضاع تجريبية، لذا فان علم النفس علم تجريبي أكثر من الانثروبولوجيا وان علماء النفس اقل اهتماماً من علماء الاجتماع بدراسة الشعوب غير الغربية.

ولكن التطور السريع في حقل علم النفس الاجتماعي يضم دراسات ثقافية متقاطعة ومعالم اخرى قريبة جداً الى اهتمامات علماء الانثروبولوجيا وعلم النفس في اهتماماتهم وجهودهم في العمل المشترك في فسلجة الدماغ البشري والجهاز العصبي. وقد تطور مجال غير متوقع للتعاون بين علم النفس والانثروبولوجيا في المختبر والدراسات الميدانية على القردة السفلى والعليا.

وتشترك الانثروبولوجيا مع الجغرافية بالاهتمام في أمور متشابهة جديرة بالملاحظة. فيجري في وقت واحد الجغرافيون الانثروبولوجيون دراسات تدجين النباتات والحيوانات وتكيف الناس

لأنواع خاصة من البيئات الطبيعية وكذلك الخصـــائص الاجتماعيـــة والثقافية للمجتمعات الرعوية ومجالات كثيرة جداً من البحث. وغالباً ما نجد الانثروبولوجيين والمؤرخين يعملون في بحوث متشابهة في موضوعات كتاريخ الثقافة في أميركا اللاتينية على الرغم من احتمال اختلاف طرائق الدراسة. ان ميدان الاهتمام والبحث الانثروبولــوجي يربط عمل الانثروبولوجيين بعمل العلماء في كثيــر مــن الحقــول الأخرى. وهذا أمر طبيعي ومتوقع لان جميع العلماء يقبلــون مبــدأ الترابط في الكون ووحدة جميع الحياة على الأرض، وتوحد التاريخ والمجتمع البشري. وان مجالات خاصة مــن الدراســة الموســومة بأسماء مختلف الــ "لوجيات" -إي العلوم- هي بــرغم كــل شــيء شرائح مصطنعة من المعلومات المقتطعة من نســيج موحــد مــن الاحداث والأشياء. وإذا ما ظل العلماء يواصلون الاهتمام بالحــدود المصطنعة بين مجالات الدراسة فإننا قد نبقى فــي حيــز العصــور المظلمة للمعرفة البشرية.

ملخص:

بما ان الانثروبولوجيا هي "دراسة الإنسان" وتشمل الخصـــائص الاجتماعية والحضارية والسايكولوجية ومن ناحيـــة أخـــرى، علــم اجتماعي، وتضم إلـــى العلـــوم الإنســـانية. وقـــد يتميـــز علمـــاء الانثروبولوجيا في الخطوط الرئيسة لدراساتهم، عن علماء الاجتماع وعلماء النفس وعلماء الحيوان وعلماء الجغرافيا والتاريخ وغيرهم، غير إن المدى الواسع لاهتمام الباحثين الإفراد يجعل من المســتحيل رسم أي حدود واضحة بين هذه المبادئ المتعددة. من أهم مجـــالات

البحث الحديث هو الذي يؤدي إلى فوضى شديدة في الحدود بين المبادئ المتنوعة.

دراسة الصحة العقلية والاضطرابات النفسية مثلاً تشمل عمل علماء وظائف الأعضاء، وأطباء الإمراض العقلية، وعلماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء دراسة الإنسان وعلماء الوراثة، وعلماء الكيمياء الحيوية، والناشطين الاجتماعيين. ان المجالات العامة للتطور البشري والتاريخ الحضاري تربط عمل عشرات الفروع المختلفة للعلوم والإنسانيات.

في فوضى الدراسات العلمية والتاريخية المتداخلة حاول الانثروبولوجيون تأمين منهج كلي واسع لعملهم. وقد تجنبوا التخصص الضيق وتقسيم الانثروبولوجيا الى أقسام ثانوية منفصلة على الرغم من ان الجهود المبذولة في هذه الوحدة الانثروبولوجية

تظهر أحياناً على وجوه الطلبة المنهوكين المتضايقين الذين يجب عليهم نشر دراساتهم على مديات واسعة جداً من المعرفة.

الفصل الثاني
تاريخ الانثروبولوجيا

الانثروبولوجيا عند القدماء

"لهم عادة واحدة يختلفون فيها عن جميع أمم العالم الأخرى فانهم يتخذون اسم الأم وليس الأب. فإذا سألت احد اللايسيين من هو؟أجابك بإعطاء أسمه الخاص ثم اسم أمه وهكذا على خط النسب الأنثوي. وفضلا عن ذلك إذا تزوجت امرأة حرة رجلاً عبداً فان أطفالهم يكونون مواطنين كاملين ولكن إذا تزوج رجل حر امرأة أجنبية أو عاش مع محظية حتى ولو كان الرجل الأول في الدولة فان الأطفال يفقدون جميع حقوق المواطنة.

جاء هذا الوصف الموجز الأمي أو النظام الاجتماعي لـ "حق الام" من الملاحظات الاثنولوجية التي سجلها هيرودوتس المؤرخ والفيلسوف والانثروبولوجي الاغريقي (٤٨٤- ٤٢٤ ق.م).

قام هيرودوتس برحلات كثيرة في العالم المعروف آنذاك وبمشاهدات مباشرة للكثير من الشعوب والتقاليد المختلفة. وقد أجرى مقابلات، كما يفعل الانثروبولوجيون اليوم، مع "مخبرين رئيسين" وسجل أقوالهم عن الذرية.

كتب هيرودوتس في ما يتعلق بالاعتداد بالجماعة:

"... اذا كان على امرئ إن يعرض على اناس اختيار أفضل ما يبدو لهم من جميع التقاليد في العالم فانهم يفحصونها كلها وفي النهاية يفضلون تقاليدهم الخاصة بهم واثقين ان أعرافهم الخاصة تفوق أعراف الآخرين جميعاً..."

وعلى الرغم من ان هيرودوتس وقلة من قدماء الإغريق كانوا اوائل من اضطلع بدراسة الإنسان طبيعياً، فعلينا ان نلتفت إلى تاسيتوس الروماني من اجل أفضل مثال قديم على "الدراسة الاثنوغرافية" عن ثقافة "بدائية" خاصة. في كتابه الموسوم "جرمانيا" ٩٨ ب.م. وصف تاسيتوس أخلاق وعادات القبائل الجرمانية وبيئتهم الجغرافية. كتب محذراً زملاءه الرومانيين من قوة الجرمانيين وشجاعتهم لأنه رأى فيهم برابرة (همجاً) غير فاسدين يمكن ان يسببوا سقوط روما الآيلة الى الانحلال. وقد لاحظ بإعجاب انه "لا احد في ألمانيا يجد الرذيلة أمراً ممتعاً او يسميها شيئاً "عصرياً في ان يفسق احداً او يفسق به".

وكتب أيضاً "الزواج في ألمانيا بسيط جداً ولاتوجد سمة بارزة في أخلاقهم تستحق الثناء البالغ. انهم يكادون يكونون فريدين بين البرابرة في كون الواحد منهم يكتفي بزوجة واحدة. اما الاستثناءات النادرة جداً فهي تخص الرجال الذين يتلقون عروضاً لزوجات كثيرة بسبب مقامهم الرفيع. وليس ثمة جدال في الرغبة الجنسية او المهر يقدمه الزوج الى الزوجة وليس الزوجة الى الزوج."

لم يظهر بعد تاسيتوس حتى القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلا قلة من الرجال الذين حاولوا تسجيل ملاحظات نزيهة وتفسيرات

للمجتمع والسلوك البشري. ان أي تحقيقات طبيعية او تجريبية في طبيعة الإنسان ومحيطه أحبطتها تهديدات بالمضايقة والاضطهاد".

الرحالة العظماء: ماركو پولو، ابن بطوطة، ابن خلدون

كان في القرنين الثالث عشر والرابع عشر أمثلة قليلة من الكتابات " الانثروبولوجية الأولى". فقد سافر الرحالة الايطالي الشهير ماركوپولو الى الصين وكثير من الجزاء أسيا الاخرى مدة تربو على العشرين عاماً (١٢٧١-١٢٩٥) ونقل الى الأجيال التالية من المعرفة عن الشعوب والتقاليد التي تفوق تصور معاصريه من الايطاليين. واليكم قطعة مجتزأة من ملاحظاته عن التتار في أواسط آسيا:

"بيوتهم دائرية مصنوعة من الخشب وتغطي باللباد الذي ينقلونه معهم على عربات ذات أربع عجلات أينما ذهبوا والهيكل مشيد من قضبان بمهارة واناقة فائقة حتى يسهل حمله لخفة وزنه.. واوكد لكم ان النساء يقمن بالبيع والشراء وعمل كل ما يحتاج إليه أزواجهن وأهل بيتهن ولا يكلف الرجال انفسهم عناء اي شيء سوى الصيد والبيزرة والحرب... ولاتعاف أنفسهم اكل لحم الخيل والكلاب وشرب حليب الأفراس... ولا يمس احدهم زوجة شخص اخر حتى ولو اعطي مُلك الدنيا، لانهم واثقون ان هذا الفعل خطيئة وخزي.."

اما ابن بطوطة (١٣٠٤-١٣٧٨) اعظم رحالة عربي في العصور الوسطى فقد انطلق من موطنه في شمال افريقيا في سلسلة من الاسفار الى روسيا والصين والهند وسومطرة وكمبوديا ثم غرب افريقيا شبه الصحراوية ومن ضمنها تمبكتو. وكان مجمل ما قطعه

في أسفاره خلال الثمانية والعشرين عاماً ينوف على خمسة وسبعين الف ميل. ثم املى روايته بامر ملكي على محمد بن جُزي. وتكشف رواية ابن بطوطة كثيراً من المعلومات عن الحكومات الإسلامية في زمانه وكذلك تفصيلات من الممارسات الإسلامية الدينية والثقافية.

وكان في الوقت نفسه عالم عربي آخر هو ابن خلدون يجمع معلومات وملاحظات مثل ماركوپولو وابن بطوطة بل يجب ان يعد عالماً اجتماعياً عميق التفكير. وحاول بخبرته الثرية في مختلف الحكومات الاسلامية اضافة الى ملاحظاته وقراءاته الواسعة ان يؤسس "دراسة المجتمع البشري في أشكاله المختلفة كافة، وطبيعة خصائص كل شكل من هذه الاشكال والقوانين التي تتحكم في تطوره". ان بعض مبادئ ابن خلدون عصرية على نحو رائع على الرغم من انها كتبت قبل خمسة مئة عام:"

١. تخضع الظواهر الاجتماعية الى قوانين ثابتة تسبب أحداثاً اجتماعية تتبع أنماطاً واضحة وسياقات متعاقبة.

٢. تعمل هذه القوانين في الجماهير ولايمكن أن تتأثر تأثراً مهماً بأفراد منعزلين. ويعطي امثلة على محاولات المصلح إعادة الشباب الى الدولة التي أصابها الفساد. ولاتلاقي هذه الجهود الإصلاحية الا نجاحاً قليلاً. وتغمر القوى الاجتماعية الجهود الفردية بنحو طاغ.

٣. لايمكن اكتشاف القوانين الاجتماعية الا بجمع أعداد كبيرة من الحقائق فقط التي يمكن منها ملاحظة سياقات متعاقبة وعلاقات متبادلة.

٤. تعمل قوانين مشابهة في مجتمعات من النوع نفسه في البناء مهما كانت متباعدة في الزمان والمكان (ويسجل ملاحظات عن التشابهات بين البدو والكرد والبربر).

٥. المجتمعات غير مستقرة لان الأشكال الاجتماعية تتغير وتتطور.

٦. هذه كلها قوانين اجتماعية وليست محض انعكاسات عوامل بيولوجية او طبيعية.

عصر الاكتشاف

فتحت في القرن الخامس عشر سلسلة من التطورات المهمة الطريق لإضافات واسعة الى معرفة الانسان. فقد طورت في عام ١٤٤٦ طباعة ناجحة. وجلب العرب صناعة الورق الى أوروبا الغربية. وادى سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ الى هجرة العلماء الارسطوطاليين الى أوربا الغربية. وقد كان لكل هذه التطورات اثر محفز في الحالة العلمية في الغرب.

في نهاية القرن الخامس عشر قام بحارة برتغاليون واسبان وغيرهم بمغامرة في المحيطات المجهولة آنذاك حتى وصلوا العالم الجديد. فبدأ حينئذ تراكم سريع في معرفة جديدة من شعوب العالم- كالهنود الحمر في أمريكا وشعوب جزر البحار الجنوبية وشعوب غرينلاند التي تصيد الفقمة والرنة، والشعوب المختلفة الثرية في الهند وجنوب شرق اسيا وسكان جنوب الصحراء من الزنوج.

وقد قسمت المعتقدات الدينية الجنس البشري الى سلالات تنحدر من سام وحام ويافث وكلهم ينحدرون من آدم. ويبدو ان هذه التقسيمات لم تنطبق على شعوب العالم الجديد التي اكتشفت حديثاً.

وقد صرح الأسبان الاوائل الناشطون في الاستكشاف (والنهب والسلب) في العالم الجديد ان الهنود الأميركيين لم يكونوا من سلالة آدم لذلك فانهم خارج العناية الآلهية وقد بررت هذه الفرضية القسوة الوحشية التي نفذها الغزاة الأسبان، وقد أعلن البابا في عام ١٥١٢ ان الهنود الأميركيين هم فعلاً من سلالة آدم لذا فانهم يستحقون المعاملة على وفق المبادئ الخلقية نفسها كالأوربيين وقد واصل المستكشفون والمستغلون معاملة "المواطنين" كصيد ثمين ولكن بعض الافراد من المبشرين الكاثوليك عملوا على حماية حقوق الانسان للهنود. وقد واصل كثير من العلماء وبضمنهم پاراسلوس وجيور دانو برونو اعتبار الاثيوبيين وسكان جزر بحر الجنوب والشعوب الاخرى "المختلفة بدنيا" انهم ليسوا من الجنس نفسه.

لعل كتاب ريچارد هاكلويت الموسوم "رحلات الغواصين التي تتعلق باكتشاف اميركا" ١٥٨٢، اشهر مجموعات كثيرة في المعلومات الجغرافية والانثروبولوجيا التي اخذت تصبح متيسرة لدى علماء القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر. ومن المؤلفات الاخرى المشهورة "تاريخ اهل الشمال" تاليف كلاوس ماكنوس (١٥٥٥) والمجموعة الضخمة من "العلاقات اليسوعية" في ثلاثة وسبعين جزءاً جمعها المبشرون في العالم الجديد بين ١٦١٠و١٧٩١ و "رحلات" الكابتن كوك. ١٧٧٠-١٧٨٠ ورحلة پ. س. پالاس الى روسيا (١٧٧١-١٧٧٦) و "تاريخ غرينلاند" تأليف و. غرانتس ١٧٦٧.

بدأت تظهر حقائق اثنوغرافية من هذه المؤلفات في مناظرات فلاسفة التنوير. وقد اقتبس جون لوك من "علاقات

اليسوعيين" في مناقشة "العقد الاجتماعي" وادخل جان جاك روسو فكرة "الهمجي النبيل" في التأمل الفلسفي متخذاً هنود الكاريبي في فنزويلا مثالاً له.

ظهور الانثروبولوجيا

طور فلاسفة التنوير هؤلاء افكار التقدم والتطور التي غدت البؤرة المركزية للنظرية الانثروبولوجية في القرن التاسع عشر يرقى كثير من النتف والقطع من الافكار الانثروبولوجية الى تلك القرون الاولى. غير ان قصة التطور الثقافي والبيولوجي البشري بدأت تتخذ نمطاً ملحوظاً في القرن التاسع عشر فقط. قبل ذلك العهد لم تكن تنقصها المعلومات الوصفية بل كان من الواجب تخطي عقبات العقيدة اللاهوتية ايضاً.

حتى بداية القرن التاسع عشر اقر كثير او معظم العلماء المشتغلين بالتنويعات الثقافية والتاريخ البشري عمر الارض كما اعلن رئيس الاساقفة اوستر في عام ١٦٥٠. فقد حسب رئيس الاساقفة هذا من دراسة متأنية للكتاب المقدس ان الله خلق العالم في عام ٤٠٠٤ قبل ميلاد المسيح بالضبط، واضاف الى ذلك دكتور لايتفون الاهوتي ان "السماء والارض. المركز والمحيط، حلقنا معاً في وقت واحد، وكانت الغيوم محملة بالماء.... وان ذلك العمل حدث خلق الثالوث الاقدس الانسان في اليوم الثالث والعشرين من تشرين الاول، ٤٠٠٤ق.م. في الساعة التاسعة صباحاً... الانسان وآلهته هومر و. سمث ١٩٥٣.

ولكن في ١٨٣٠ و١٨٤٠ اكتشف الراهب الفرنسي بوشين دو بيرت عدداً من الأدوات الحجرية في حصباء نهر السوم قرب باريس ويصر على قدم أدوات الإنسان هذه.

وثارت نقاشات لاهوتية وعلمية عظيمة ولاسيما في فرنسا وانكلترة بشأن عمر هذه المواد الاثرية ووجدت لقى اثرية اخرى مهمة في فرنسا وانكلترة وعثر في عام ١٨٥٢ على سن وحيد القرن مع سلاح من حجر الصوان في كهف كينيت في انكلترا على يد الكاهن ج. مالك اينزي. وقوض تراكم الشواهد السريع عن العصر الحجري للانسان التاريخ الثقافي البشري حسب التوقيت التوراتي.

تطور آخر مذهل في تجميع الشواهد المتعلقة بعراقة الانسان حدث في وادي نهر صغير قرب نهر دوسلدورف في المانيا، حيث وجدت عام ١٨٥٧ اجزاء من هيكل انسان عظمي له ملامح تختلف عن ملامح الانسان الحديث فقد كانت الجمجمة ضخمة ومسطحة نوعاً ما في الاعلى مع بروز شديد عند الحاجبين. العالم الالماني الذي كتب اولاً عن هذه البقايا البشرية المتحجرة وصفها بانها تعود الى جنس بربري وهمجي... وهي اقدم اثر لسكان أوربا الأوائل..- مئة عام من الانثروبولوجيا، ت.ك. بيتيمان; ١٩٥٢- وجدت هذه المتحجرات المهمة جداً في وادي نهر نياندر ولذلك أطلق عليه اسم نياندرتال.

في ١٨٥٩ العام الذي نشر فيه دارون "أصل الأنواع" كان العلماء القياديون في أوربا الغربية على استعداد لقبول نظرية ان الأرض والإنسان قديمان جدّاً وان العمر النسبي للصخور والتربة

ومصنوعات الانسان يمكن قراءتها من مواقعها في طبقات سطح العارض متبعين المبادئ الجيولوجية المعروفة وان الأدوات الحجرية وبقايا الهياكل العظمية في المواقع المختلفة في انكلترا وفرنسا وغيرهما هي شواهد على بدايات التاريخ البيولوجي والثقافي للإنسان الذي يرقى الى مئات الآلاف من السنين في الماضي. ولقد فتحت نظرية دارون الشهيرة في الانتخاب الطبيعي الطريق الى تفسير والى فهم علاقة الإنسان بعالمه الطبيعي والى فهم علاقة إنسان نياندرتال(وما شابه من المتحجرات) بالإنسان العاقل الحديث. وقد كان بعض العلماء سريعين في تطبيق المبادئ الأساسية للتطور على المواد الثقافية غير البايولوجية ايضاً.

الانثروبولوجيا التطبيقية الاولى:

"في تسمانية حيث كان اهل البلاد الاصليون يصادون كالبهائم وتطلق النار عليهم، ولم يبق منهم في عام ١٨٣٥ الا ٢٠٣ (مئتان وثلاثة) أشخاص، هذا العدد الضئيل الذي يرثى له من الالوف. ومات اخر تسماني نقي الدم عام ١٨١٦. ولم يكونوا في القارة اوفر حظاً ولكي يباد رعاة الأغنام (في استراليا) أراضي المراعي بسرعة أكثر قدموا لهم بود ظاهري كعكاً من الطحين ممزوجاً بالزرنيخ وبهذا أبادوا بالسم البشر السود كأنهم سناجيب. وقام مبدعون آخرون من مبيدي المواطنين الأصليين بتسميم حفر الماء الطبيعية". هـ. ر. هيز، من القرد الى الملاك، ١٩٥٨ اثار ذبح اهل البلاد الأصليين وتجارة العبيد غير الانسانية ضمائر كثير من الخيرين في انكلترا والقارة الاوربية فتأسست في عام ١٨٣٧ "جمعية حماية اهل البلاد الاصليين" في لندن. وبعد سنة، تأسست

بهدف أنساني مشابه "الجمعية الاثنولوجية" في باريس. وقد حملت مجلة الجمعية الاثنولوجية "في لندن عام ١٨٥٦ هذا القول: "تنال الاثنرولوجيا الان إقراراً عاماً بانها تمتلك أقوى المطالب من اهتماماتنا، ليس لانها تميل الى إشباع حب استطلاع اولئك الذين يحبون تأمل الطبيعة فقط بل لأنها ذات اهمية عملية عظيمة ايضا ولاسيما في هذا البلد الذي تجعله مستعمراته وتجارته الواسعة على اتصال بكثير من الانواع من الأجناس البشرية المختلفة في صفاتها البدنية والخلقية فيما بينها وبيننا أيضاً".

لذلك تطورت دراسة الانثروبولوجيا من اندماج الاهتمامات النظرية والعلمية فكان حب الاستطلاع العلمي فيما يخص العصر الحجري ونشوء الحضارات القديمة والتقاليد "العجيبة الغربية" لمختلف الشعوب الحية. وقد تشبع في الوقت نفسه كثير من الانثروبولوجيين الاوائل بالاعتقاد ان معرفة الثقافات البشرية سوف تجلب منافع عملية عاجلة للناس- وتقليل القسوة والبؤس والجهل بين البشر.

مبدأ التطور الثقافي

على الرغم من ان النظريات الانثروبولوجية في تطور الثقافة نالت دعماً قوياً بنشر "اصل الانواع" لداروين فيتحتم علينا ان نعرف ان مفاهيم التطور الثقافي التي هيمنت على التفكير الانثروبولوجي في القرن التاسع عشر لم تكن نتيجة مباشرة للآراء الداروينية. فقد كان فلاسفة التنوير ولاسيما تورگو وكوندورسية المصادر الرئيسة لكثير من الآراء التي كونت نظرية التطور الثقافي. وقد اعتقدوا ان تاريخ البشر يمكن ان يوصف بالارتقاء من البدايات

البسيطة الى حضارتنا المعقدة وأوضحوا مراحل مفترضة ارتقت خلالها الثقافة البشرية بدءاً بالخليقة والهبوط والطوفان، يلي ذلك تنظيم الإنسان في مجموعات صغيرة من الصيادين وجامعي القوت، ثم التطور الرعوي واختراع الزراعة وفكرة الملكية الخاصة، ونمو القرى وتقسيم العمل ومن ثم الى الحضارة الحديثة.

يعد لويس هنري مورغان (١٨١٨-١٨٨١) مؤسس الانثروبولوجيا الأميركية. وقد اهتم مورغان بدراسة مجموعات من الهنود الحمر ولاسيما قبائل اوركويس في أميركا الشمالية واكتشف بعض الاصطلاحات الغريبة المستعملة في الإشارة الى القرابة. وكان يؤمن بارتقاء الإنسان نحو الأفضل وقد اختير مديراً للمكتب الأميركي للاثنولوجيا وخلفه في منصبه ذلك صديقه جون ويسلي، بوويل بعد موته.

ويعد ادوارد تايلور صنو مورغان الانكليزي ولم يكن يحمل شهادة جامعية بيد انه كان اول انثروبولوجي في انكلترة وعين أول أستاذ للانثروبولوجيا في اوكسفورد في ١٨٩٦. وكان يؤمن بتطور الإنسان من الهمجية الى الحضارة. ومن العلماء في القرن التاسع عشر جون لوبك وهنري مين وجيمز فريزر في انكلترة وج.ج. ياكوفت في سويسرا وادولف باستيان في ألمانيا مؤسس المتحف الانثروبولوجي في برلين والعضو المشارك في تأسيس جمعية الاثنولوجيا والانثروبولوجيا وما قبل التاريخ في برلين ايضا.

رد الفعل على نظرية التطور:

اخذت الشكوك تراود بعض الانثروبولوجيين عند اقتراب القرن التاسع عشر من نهايته بشأن نظريات مورغان وتيلر عن

التطور الثقافي. فقد ارتاب هؤلاء الانثروبولوجيون المناهضون للتطور بمرور جميع المجتمعات البشرية بالمراحل نفسها. وقد انكروا ان يمثل تاريخ البشرية التقدم دائماً وعرضوا ان فكرة تاريخ الثقافة البشرية يفهم أفضل فهم نتيجة للانتشار المعقد للعناصر الثقافية بين المجتمعات البشرية.

كان اكثر مناهضي التطور تطرفاً الانكليزيين و.ج. پيري وغرافتون اليوت سمث اللذين ادعيا ان التطور الثقافي جميعاً قد حصل عملياً في مكان واحد هو مصر وانتشر منها إلى جميع أنحاء العالم. وأوضحا ان علم المعادن والزراعة والعمارة والمجتمع المعقد والممارسات الدينية والمتكسبات الثقافية لدى حضارات المايا والازتك والانكا، مثلا، هي ابتكارات مستعارة من مركز الأشياء كلها- مصر.

وقد كان للانثروبولوجيين النمساويين من مدرسة مناهضة للتطور في أوائل القرن العشرين وكانوا اقل تطرفاً من أصحاب نظريات التمركز المصري. ويعتقد فرنسيس غرابينر وبيتر ڤيلهلم شملت، قادة مدرسة ڤينا، ان أصل الثقافة البشرية قد تطور في مكان ما في آسيا ومن هذا المركز الثقافي تطورت عدة "مجتمعات ثقافية" واضحة المعالم في بيئات مختلفة ونقلت هجرات بشرية عظيمة هذه المجمعات الثقافية القديمة الى مناطق متفرقة من العالم. المجتمعات الثقافية ذات الزواج بالأباعد من ناحية الأم التي كان فيها زراعة بالحراثة وزوارق من الألواح وميثولوجية عن القمر وبيوت مستطيلة ذات سطوح جملونية وجمعيات رجالية سرية، افترض انها نقلت الى كل من منطقة غينيا الجديدة والى أفريقيا. وقد وجه انتقاد

شديد للانثروبولوجيين المعتقدين بالمعتقدات الثقافية لنقاط الضعف في النظرية ولكنهم نالوا استحساناً متكرراً لعملهم الميداني الواسع.

ويبرز في الانثروبولوجيا الأميركية عالم يقلب نظريات التطور الثقافي، ذلكم هو فرانز بواس الذي درس في ألمانيا وتسنم منصباً في جامعة كولومبيا ومتحف التاريخ الطبيعي الاميركي في الولايات المتحدة وأصبح له طلبة كثيرون في الدراسة الميدانية للانثروبولوجيا بين الهنود الاميركيين ومن اشهر أولئك الطلبة كلارك وسلرو أ.ل. كرويتبر وروبرت لوي ومرغريت ميد روث نيتدكت وملفيل هير سكو فيتس:

ويصعب علينا ان ندرك وجود زمر هندية ما تزال حرة في عام ١٨٩٠ تهددها ولم تحطمها موجات اصحاب العربات المغطاة والباحثين عن الذهب وعمال سكك الحديد وقطعات الجيش والمستوطنين والآخرين في الغرب الامريكي. كان بالنسبة الى بواس وطلبته كل يوم يمضيه المرء في مكتبه يعمل في مسائل نظرية عن التطور وتاريخ الثقافة وافكار اخرى غامضة مجردة يعني ضياع يوم من الحقائق الاثنوغرافية التي لاتثمن ولاتسترد. لذلك خرجوا في فصول الصيف وفي كل فرصة اخرى مواتية بقليل من المال من المتحف لجمع المعلومات واشياء من صنع الناس من جماعات الداكوتا والشييني وبلاكفوت وكراو واباشي وغيرهم من جماعات كانت قبيل سنوات تصطاد الجاموس وتغير على قطعان خيول بعضهم بعضاً وتحارب وحدات الجيش الاميركي (وفي ما بينها) في منطقة السهول العظمى. وقام بواس بنفسه بعمل ميداني واسع بين قبائل الكواكيوت وغيرهم من القبائل على ساحل كولومبيا البريطانية.

وكوّن بواس واتباعه نظرية مناهضة للتطور مـن الركـام العظيم المتجمع من الحقائق الاثنوغرافية من الهنـود الأميـركيين. وشجبوا نظرية مورغان في المراحل كأشياء مختلفة من الخيال ولا يدعمها دليل. وصرحوا ان المعلومات الاثنوغرافية المعقدة لا تناسب المراحل المرتبة وهي: مرحلة العبودية السفلى والعبودية الوسـطى والعبودية العليا والبربرية الوسـطى والبربريـة العليـا ومرحلـة الحضارة، ومن امثلة المرحلـة الأخيـرة الاميريكيـون الأوربيـون والاميركيين، التي تبدأ بعد اختراع الإلف باء. أوردوا فـي تفنيـدهم مثلاً عدة قبائل هندية من السهول العظمى تتـرك حيـاة الاسـتقرار الزراعي وتتحول الى حياة التجوال الى صيد الجاموس وهي النقيض المعاكس للتسلسل التطوري لدى مورغان وتيلر. كانوا يرون تاريخ الانسان نوعاً من "شجرة الثقافة" ذات تفرع معقد عجيب ومتشـابك يخرج براعم جديدة- كل فرع يمثل تجمعاً ثقافياً مختلفاً يفهم حسـب تاريخه الفريد اكثر من مقارنته بالمجتمعات الثقافية في مناطق العالم الاخرى في نظام "مراحل التطور". ومن النقاط التي تختلـف فيهـا "المدرسة الاميركية" الجديدة للانثروبولوجيا عن مدرسة التطويريين في ما يأتي:

انكار فكرة ان التطور يمكـن ان يتسـاوى مـع التقـدم او الارتقاء رفض اعتبار الثقافات المتفرقة ممثلـة "للانمـاط الثقافيـة" الواسعة مثل الصنف الذي يشمل الجميع، العبوديـة. تنظـيم عـالم الحقائق الاثنوغرافية الى "مناطق ثقافية" كل فكرة تعد فريـدة فـي تاريخ الثقافة مع مجموعة ناتجة متميزة من العناصـر الثقافيـة او السمات. وقد جعلت الفروق بين وجهات النظر التطورية والمناهضة

للتطور بعض نقاط الاتفاق الاساسية مهمة في اغلب الاحيان اذ اكـد كلاهما عقلانية وانسانية الشعوب البدائية، وكانوا على اتفاق تام ان الفروق الثقافية تعزى الى التاريخ الثقافي ولـيس الـى التباينـات البايولوجية. وكانت كلتا المدرستين الفكـريتين تعـارض معارضـة جوهرية النظرة اللاهوتية ان الشعوب البدائية "انحطت" من منزلـة رفيعة في جنة أصيلة. لقد انشأ التطويريون والمناهضـون للتطـور على حد سواء نظرياتهم على ادلة ذات علاقات متبادلة مـن علـم الإحياء البشري والآثار ودراسة اللغات والاثنوغرافيا.

دراسات سيكولوجية وتشكيل اجتماعي

"الفرد دائماً هو الذي يفكر ويعمل ويحلم ويثور حقـاً" كتـب ادورد سابير، وهو المع طلبة بواس، هذا المعتقد كرد فعل لما شعر به انه ازالة الشخصية المتأصلة في دراسة العقد الثقافية وانتشـار التقاليد واعادة بناء تاريخ الثقافة. وقد اعتبر بنو البشر "حملة ثقافة" سلبيين لا اهمية فردية لهم في الدراسة الانثروبولوجية. وفي سلسلة من الاوراق والبحوث في الحلقات الدراسية بدأ سـابير وقلـة مـن الانثروبولوجيين الامريكيين في عشرينيات وثلاثينيات هـذا القـرن العمل من اجل ادخال دراسة علم النفس في الانثروبولوجيا الثقافيـة الى طبيب نفساني.

من طلبة بواس، مرغريت ميد التي اصبحت تهتم بالطب النفسي وعلاقة الشخصية بالثقافة في عملها الميـداني الاول بـدأ بدراسـة المشكلات النفسية للمراهقين بين الساموانيين. فـي سلسـلة مـن الحلقات الدراسية في ثلاثينيات القرن العشرين في جامعة كولومبيا،

تعاون رالف لنتن الانثروبولوجي وابرام كاردنر (الطبيب النفسي) في ايجاد منهج جديد للانثروبولوجيا بمنحنى سيكولوجي وقد صاغ كاردنر ولنتن فكرة "الشخصية الأساسية" مفهوماً موحداً لفهم الإنسان والثقافة "الشخصية الأساسية" لشعب معين هي نمط المزايا السيكولوجية المشتركة لدى جميع او اغلب أفراد المجتمع نتيجة التشابهات في ممارسات تدريب الأطفال. وتنعكس الشخصية الأساسية لمجتمع معين في مجالات كثيرة من التقاليد ولاسيما المعتقدات والممارسات الدينية والفن والميثولوجية والخيالات الشعبية.

طبقت كورا دو بوا هذا الاطار العام للنظرية في دراسة عن شعب آلور (١٩٤٤). وجمعت الدكتورة كورا دو بوا معلومات عن تدريب الاطفال والاحلام الفردية وسير الافراد وحقائق عن الانماط الاقتصادية والاجتماعية والشعائر الثقافية من بين الالوربيين القاطنين في احدى جزر اندنوسيا الشرقية... وحصلت على استجابات على اختبارات رورشاخ (لطخ الحبر) ومواد سيكولوجية اخرى. وبين المعلومات التي جمعتها ان أطفال الالوربين يعانون قلقاً عظيماً بسبب تغذيتهم ورعايتهم ويؤدي ذلك الى قلق عن الغذاء وخصائص الشخصية بين الكبار.

عناصر الشخصية هذه هي بدورها تفسيرات لموضوعات عن الطعام والجوع ومشاكل اخرى في شعائرهم الدينية والحكايات الشعبية والاحلام الفردية.

تطورت دراسات "الثقافة والشخصية" تطوراً سريعاً في الأربعينيات وبدأ كثير من الانثروبولوجيين باستعمال اختبارات

الشخصية في مقررات العمل الميداني بين الهنود الأميركيين وشعوب جزر الجنوب واقسام اخرى من العالم.

وتطور الاهتمام أيضاً بشأن الإمراض العقلية وأنماط "الشذوذ" في المجتمعات البدائية. تعبر جميع هذه الدراسات عن علاقة متبادلة قوية ومستمرة بين نظريات الانثروبولوجيين والسيكولوجيين في السلوك البشري.

تطور رد فعل اخر للفهرسة التدريجية لتقاليد والمجتمعات الى ما عرف بدراسات التشكيل الاجتماعي. فكتاب روث بيندكنت "أنماط الثقافة" ١٩٣٤ يعد أفضل تعبير معروف لهذا الاتجاه. فقد أخذت هنود البويبلو في الجنوب الغربي والكواكيوتل في كولومبيا البريطانية والدوبو في جنوب المحيط الهادي أمثلة رئيسة وحاولت ان تبين أن كل ثقافة ليست مجموعة اعتباطية من التقاليد التي "استعيرت" كيفما أنفق او انتشرت من ثقافات مجاورة. وأكدت ان كل ثقافة منظمة حول بعض التشكيل المركزي للأفكار.

الانثروبولوجيا الوظيفية

تأثرت الخطوط العامة للانثروبولوجيا في أميركا وأوربا تأثراً متزايداً بما يدعى المدرسة الوظيفية البنيوية في النظرية الاجتماعية. قام عدة كتاب في القرن التاسع عشر وبضمنهم هربرت سبنسر وفوستل دو كولانج واغست كونت بتطوير نظريات في السلوك الاجتماعي البشري الذي يربط المجتمعات بالكائنات الفردية حيث تقوم الأجزاء- اي المؤسسات او تجمعات التقاليد في المجتمع بالمحافظة على حياة المجتمع.

وقد حذا حذوهم اميل دوركهايم العالم الفرنسي بإيجاد نظرية لأصول الدين ووظائفه. وجمع أدلة ليبين ان الممارسات الطوطمية الاسترالية تعبد كل جماعة اجتماعية او عشيرة او فخذ طوطماً حيوانياً خاصة او ظاهرة طبيعية أخرى، وبعملها هذا تقوم مثل هذه الجماعات بعبادة نفسها في الحقيقة، اذ يبدو ان الحيوان او النبات الطوطمي رمز للجماعة الاجتماعية نفسها. واستنتج دوركهايم:

"لاجدال ان المجتمع يمتلك كل ما هو ضروري لإثارة الإحساس الديني في العقول بالقوة التي يمتلكها عليهم لأنه بالنسبة الى أعضائه كالإله لعابديه... وليست القوة الدينية إلا القوة الجماعية المجهولة للعشيرة".

الإشكال الأولية للحياة الدينية

تسهب دراساته للمؤسسات والتقاليد البشرية أيضاً في طريقة اسهام هذه التقاليد في صيانة المجتمع.

وقد اثرت كتابات دوركهايم كثيراً في أ.ر. رادكلف براون، الانثروبولوجي البريطاني الذي قام بعمل ميداني بين سكان جزر الاندمان شرق الساحل الهندي. وقد اصبح رادكلف براون الشخصية البارزة في الانثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية في ما قبل الحرب الثانية وما بعدها وما يزال اثره محسوساً بقوة. وشارك في بريق الشهرة والدراسات الوظيفية مع انثروبولوجي آخر هو برونيسلاف مالينوفسكي البولوني المولد. قام مالينوفسكي في عمله لنيل الدكتوراه في الرياضيات ودرس الفيزياء والكيمياء ايضاً. وفي اثناء استراحة من دراساته قرأ (الغصن الذهبي" لفريزر وقد اوحى له

بدراسة الانثروبولوجيا. وبعد مدة من الدراسة في لندن ذهـب الـى جزر تروبر ياند بعيداً عن سواحل غينيا الجديدة وأمضى فترة الحرب العالمية الأولى (أربع سنوات) منشغلاً بالبحث في اللغـة والتنظـيم الاجتماعي والدين والممارسات الاقتصادية وكل وجه اخر تقريباً من أوجه طرق الحياة في تروباند. قليل من العاملين في البحث الميداني من غمر نفسه في الحياة اليومية لشعب مـن الشـعوب لإغـراض الدراسة الانثروبولوجية.

ان سكان جزر تروبرياند، مثل الليسـيين الـذين وصـفهم هيرودوتس، يرجعون في تنظيمات القرابة الـى الام. وقـد لاحـظ مالينوفسكي انهم خضعوا لاختبار حاسم في نظرية فرويد عن عقـدة اوديب. فالناس في كل مكان على وفق نظرية فرويـد يفتـرض ان يعانوا من عقدة اوديب: اي توجيه المرء عداوته نحو ابيـه بسـبب الغيرة الجنسية المتعلقة بامه التي تصاحبها رغبة جنسـية مكبوتـة فيها. وقد وجد مالينوفسكي بين سكان تروبرياند الذين ينتسبون الى الام ان عدوانية الصبي النامي تكون موجهة الى خاله هو الشـخص الذي له سلطة على الصبي ويدربه على حياة البـالغين. وان ابـاه شخص ودود مساعد ولايمارس سلطة على ولده او تكون السـلطة ضئيلة. ووجد مالينوفسكي ان التجـريم الجنسـي علـى الرغبـات الممنوعة لايكتنف الام بل الاخت. لذا فـان الحقـائق الاثنوغرافيـة المستمدة من سكان تروبرياند الذين ينتسبون الى الام تـدعو الـى مراجعة صارمة لنظرية فرويد السيكولوجية.

وبازدياد ما كتب مالينوفسكي ونشر من مواد عـن سـكان جزر تروبرياند اتخذ الاطار النظري الجديـد شـكله. فالممارسـات

الثقافية برأيه تكون شبكة قوية متداخلة يفهم كلها بموجب العلاقـات بالحاجات السيكولوجية لافراد المجتمع. وفي الوقـت الـذي فسـر دوركهايم واركلف براون السحر والدين بانهما يخدمان المجتمعـات بوصفها نظامين فان مالينوفسكي اشار الى الطريقة التي يمكن فيها فهم هذه الممارسات والمعتقدات كاستجابات لحاجات الكائن البشري الفرد.

وعلى سبيل المثال اوضح مالينوفسـكي ان سـكان جـزر تروبرياند (وجيرانهم) لا يستعملون السحر في عمليات الإبحار الآمنة قرب الشاطئ وان بناء الزوارق وطرق الإبحـار فـي مثـل هـذه المغامرات تفي بالمرام. ولكن حين يتحتم عليهم الإبحار بعيداً حيـث العواصف المفاجئة والإحداث الأخرى غير المنظورة يمكن ان تباغت الملاح وتجعل جميع معلوماته ومهارته وطرائقه الفنيـة غيـر ذات نفع- تكون حياة الإنسان في يدي قوى خارج نطاق "العلم"- وهناك يعاني الفرد من قلق يائس.

وهكذا تطورت "المدرسة الوظيفية" في الانثروبولوجيا الـى فرعين نظريين مختلفين. وغالباً ما تؤكـد تفسـيرات مالينوفسـكي الوظيفية. حاجات الافراد المفترضة في الوقت الـذي تؤكـد أتبـاع دوركهايم ورادكلف براون حاجات النظام الاجتماعي المفترضة وقـد طور كلا النمطين الوظيفيين نزعة قوية من الدراسـات التاريخيـة لأنهما حاولا تحليل نظام ثقافي اجتماعي يعمل في نقطة معينة مـن الزمان. وقد أدت النظرية الوظيفية إلى تطورات عظيمة في البحـث الميداني ما دام تحليل الأهمية الوظيفية لتقاليد ومؤسسـات خاصـة تؤدي الى جمع معلومات أكمل وأكثر نظاماً من فهرسة التقاليد.

تطورات في الفكر الانثروبولوجي في ما بعد الحرب

نرى مما سبق ان في بداية الحرب العالمية الثانية مدرسة بواس الانثروبولوجية المناهضة للتطور قد عانت كثيراً في التعديلات الحادة، وقد ادخل الفرد والشخص الفاعل وخصائصه النفسية من وجهات نظر كثيرة الى تنظير عام من طبيعة الانماط السلوكية البشرية. وصار ينظر الى الثقافة والمجتمع، اكثر فاكثر، بوصفهما نظماً وبنى متواشجة وظيفياً أكثر من كونهما محض تراكم او قوائم من المؤسسات والتقاليد الثقافية.

قاد تثمين لتاريخ الثقافة اكثر رصانة كثيرين من علماء الانثروبولوجيا إلى الاعتراف بوجود بذور للحقيقة، برغم كل شيء، في كثير آراء مورغان وتايلر ومنظرين "غير عمليين" من القرن التاسع عشر قد اتخذ انثروبولوجي واحد في الأقل هو ليسلي وايست موضوع الدفاع عن مروغان بأنه كان مفكراً عظيماً عانت إسهاماته الرائعة في الانثروبولوجيا من إساءة فهم كامل وحقود من جانب الانثروبولوجيين إتباع بواس ومن جاء بعدهم. وقد جمع وايت وإتباعه مقداراً عظيماً من المواد والحجج التي تعيد تفسير أفكار مورغان التطويرية في ضوء جديد بنظرية الطاقة في الثقافة في هذه النظرة يكون التطور الثقافي نتيجة للتغيرات في كميات الطاقة المتيسرة في المجتمعات، المتأثرة بنمط التكنولوجيا المستعملة للإفادة من مصادر الطاقة.

في أثناء الحرب العالمية الثانية دعي الانثروبولوجيون لجعل معلوماتهم الخاصة نافعة لقضية الولايات المتحدة والحلفاء. فأعاد الانثروبولوجيون تشكيل المعلومات الانثروبولوجية في كراسات

وكتيبات موجزة عن غينيا الجديدة وشعوب جنوب شرق آسيا والمياه في الغابات وفي الصحارى وكيفية كسب عواطف المواطنين المعادين ودرس انثروبولوجيون آخرون الخصائص الثقافية للأمم الرئيسة، المعادية والحليفة، لتقديم المعلومات لاتخاذ القرارات العسكرية وكذلك للكتيبات الموجزة في كيفية فهم البريطانيين. وبعد كتاب "الاقحوان والسيف" لروث بيندكت عن الثقافة الوظيفية اليابانية من أفضل الانتاجات المعروفة في زمن الحرب.

ولما انتهت الحرب دعي الانثروبولوجيون "حلاّلين للعقد" في إدارة مجتمعات الجز في جنوب شرق المحيط الهادي. وكانت لهم مهمة مزدوجة في السياسة الإدارية للمواطنين ومحاولة تفسير تقاليد المواطنين وردود أفعالهم للإداريين وفي الغالب كانت معلومات الانثروبولوجين نافعة ولكن شجرت مصاعب بسبب الاختلافات في وجهات النظر بين الاداري والانثروبولوجي وقد وصف هو مر بارنيت بعض هذه المشكلات في كتاب " الانثروبولوجيا والإدارة".

أسست جمعية للانثروبولوجيا التطبيقية في ١٩٤١ وتحمل صفحات مجلتها "المنظمة البشرية" مختلف المقالات التي تخص دراسات مستشفى الإمراض العقلية وبرامج التطور الاجتماعي في اميركا اللاتينية وبرامج تطبيقية اخرى كثيرة. وكانت مشهداً خاصاً بالنشاطات المكثفة ووجد الانثروبولوجيون انفسهم يجابهون مشكلات في تقديم ممارسات طبية جديدة وحبوب وطرق زراعية جديدة وكثير من المشكلات العملية الاخرى.والأهداف الاخرى التي تميل إليها الدراسات الانثروبولوجية هي:

تزايد الاهتمام بدراسة المجتمعات الحديثة المعقدة وبضمنها دراسات المجتمع في اليابان وأوربا والمكسيك وداخل الولايات المتحدة. تزايد التعاون مع علماء الاجتماع وعلماء النفس والجغرافية وعلماء في حقول ذات صلة بها. تزايد العلاقات المتبادلة في المفاهيم التاريخية والوظيفية والحياتية والنفسية وحتى التطورية في نظرية موحدة للسلوك البشري. يظهر من هذا العرض لتاريخ الانثروبولوجيا انه يمكن تقسيم تتابع الأحداث تقسيماً تقريبيا إلى فترات خمسين عاماً. من ١٨٥٠ الى ١٩٠٠ تبين نشوء وتدهور نظرية التطور، من ١٩٠٠ الى ١٩٤٥ يمكن ان تعتبر فترة "بواس" (توفي في ١٩٤٢) او الفترة "التاريخية الثقافية" تؤشر في نهاية الحرب العالمية الثانية بداية تطورات جديدة في الانثروبولوجيا.



الفصل الثالث
مناهج البحث الانثروبولوجي

يمكن النظر الى حقل الانثروبولوجيا بأنه ثقافة دنيا " مع منظمتها الاجتماعية وتقاليدها وقيمها وطرق عمل الأشياء. سوف نفحص في هذا الفصل بإيجاز التقاليد "والانجازات التي يستخدمها الانثروبولوجيون في البحث عن المعلومات عن طبيعة الإنسان.

لاريب إن العمل الميداني هو النشاط المفضل لدى الانثروبولوجيين لان البحث في جميع الحقول الدنيا للانثروبولوجيا يجري تتبعها في معظم الأحيان في أماكن نائية وبلدان قصية- في إفريقيا او القطب الشمالي او جنوب المحيط الهادي. ان المرحلة الأولى للباحث الانثروبولوجي- ولاسيما إذا كانت تتناول مجتمعاً بدائياً، بعيداً عن المدن والحضارة- تعد طقس بدء عمل" لن يعود بعده أبداً كما كان سابقاً مرة أخرى".

يمكن ان يقال حقاً ان أولئك القلة من الانثروبولوجيين الذين يركزون على البحث في المكتبة ويتحاشون مخاطر العمل الميداني وصرامته، يزدريهم بقية أعضاء المهنية. إن الهالة الرومانسية حول العمل الميداني تحجب أحياناً الحقيقة بان الانثروبولوجي يجمع معلومات في الميدان من اجل عمل مجهد عند العودة إلى الوطن- في المختبر والمكتبة. فان الانثروبولوجي يمضي عادة أشهراً كثيرة في تحليل وكتابة نتائجه التي استقاها من عمل شهر أمضاه في إفريقيا أو البحار الجنوبية أو غابات غينية الجديدة.

الآثار

يكاد كل من شاهد مناظر المغامرات في التلفزيــون او قــرأ احد التقارير عن اكتشاف مدن مفقودة او كنوز قديمة ان تكون لديه افكار عن مناهج البحث الانثروبولوجي. ان فكرة التنقيب من الاثــار التي تتكرر مراراً وتكــراراً فــي صــورتنا العقليــة عــن الباحــث الانثروبولوجي او مشروع حقل الاثاري غالباً ما يشار اليهــا بـــــ "التنقيب".

ولكن ما ليس معروفاً عموماً هو النمط العالي في التنقيبات التي يستخدمها الاثاري في انجاز اهداف عمله الميداني.

١. العناية الدقيقة الا تتضرر المواد االمكتشفة في عملية التنقيب.

٢. تسجيل موقع ومحيط كل شيء مكتشف برسوم وملاحظات وصــور فوتوغرافية لكي يستطيع الآثاري في ما بعد ان يثبت بدقة تامــة اي مواد وجدت في الاكتشاف تعود معاً في جمع خاص من المواد لحقبة خاصة من الزمن، كما تتمثل مثلاً، في مستويات المواد المستودعة- علم الطبقات- في موقع معين.

٣. جميع المواد المهمة المترابطة، تجمع وتسجل: عينات من التربــة، بقايا مواد حيوانية ونباتية، انماط الصــخور ونمــاذج جيولوجيــة اخرى، وكل انواع المواد الاخرى المتعلقة بالآثار الباقية او المبادئ او اشياء المقــابر او المجــوهرات او الاعمــال الفنيــة او الادوات الحجرية او الاسلحة او الاعمال اليدوية الاخرى التي يكشف الآثاري النقاب عنها.

٤. ان الاثاريين الهواة الممولين جيداً الذين ينقلون تقارير عن اكتشاف "مدن ضائعة" واعمال فنية رائعة" و"كتابات غير مترجمة"، غالباً ما يتبين انهم مخربو مواد آثارية لانهم لايولون عناية فائقة بمتطلبات رسم خرائط وتسجيل ما ذكر آنفاً. وحين يجري التنقيب عن لقية آثارية من غير عناية فائقة فليس ثمة اي طريقة لتثبيت تعاقب أزمان المواد وعلاقات الاشياء المختلفة بعضها ببعض، والمعلومات الاخرى الحاسمة للدراسة العلمية. ان الآثاري يشبه بطريقة ما المتحري عن أيجاد مفاتيح يبحث عنها، غالباً ما تكون حاذقة جداً.

ولأجل الحفاظ على المعلومات والمواد، فان على الآثاري ان يجلب مختبراً محمولاً الى موقع العمل الميداني . وبعد ان ينصب جهازه في موقع آثاري (غالباً ما يكون اختيار الموقع نفسه نتيجة شهور من العمل في الاستكشاف والمسح المضنيين) يرسم ألآثاري المخطط التمهيدي الرئيس الذي سيعمل ضمنه. تقسم الأماكن التي سيجري التنقيب فيها إلى قطع تقاس جيداً- قد تكون مربعات لمساحة كل مربع أربع أقدام مربعة، مثلاً، ويبدأ كل منقب العمل في قطعة خاصة به بعناية شديدة لئلا يتلف اي مادة يستخرجها من الأرض. وحين يجد ألآثاري أي شيء مهم- آلة، هيكلاً عظمياً، كسرة من عمل فني- فانه يكشفه ببطء شديد، ويستعمل أحياناً أدوات مثل عيدان تنظيف الأسنان، وفرش الأسنان، وفرش الرسم الصغيرة لكي يتجنب إتلاف المواد الرقيقة. من غير تدريب خاص على هذه التقنيات، فان المنقب يكسر ويحطم كثيراً من الأشياء المكتشفة.

وحين يكون لدى المنقب الآف المواد المكتشفة، والمؤشر عليها والمسجلة، والمصنفة والمنقولة بأمان الى مختبره في بلاده فان مرحلة البحث الميداني تنتهي، ويبدأ العمل الشاق في التحليل العلمي بجد. (مرة أخرى، علامة الانثروبولوجي الهاوي انه في اغلب الأحيان يرضى ببهجة ووصف ما وجد في العمل الميداني من غير الدخول في العمل الشاق للتحليل الذي يكسب نتائجه في معرفة علمية نافعة.

تعيين تاريخ البقايا الآثارية

المشكلة التاريخية الكبرى التي يواجهها ألآثاري هي مسألة تدوين التاريخ- اي تثبيت الحقب الزمنية وتعاقبها بخصوص المواد التي ليس لها دليل مكتوب لتواريخ مسجلة عليها. النشريات الآثارية مملوءة بجداول زمنية للمواد الثقافية- توضع معاً من معلومات تجمع من مئات المكتشفات التنقيبية المختلفة. تشمل بعض المناهج تثبيت التواريخ وتعاقبها الخاصة بالمواد الآثارية ما يأتي:

١. **دليل الطبقة المسجل**: إذا كان الموقع الآثاري غير مبعثر ومضطرب نسبياً فيمكن اعتبار المواد التي توجد قريباً إلى السطح أنها احدث أو اصغر عمراً من المواد التي توجد أعمق في الأرض.

٢. **الصلة بالبقايا النباتية والحيوانية**: مثلاً، الفؤوس اليدوية من حجر الصوان التي توجد مع عظام أصناف فيلة وماموث وحيوانات أخرى منقرضة قبل مدة طويلة، فأنها من المفاتيح التاريخية المهمة عن الإنسان القديم في غربي اوربا.وكذلك، عظام اشكال جمال وخيول وثيران البيسون المنقرضة التي توجد مع مصنوعات هندية

تساعد في تثبيت عصور نسبية لبعض البقايا الآثارية في اميركا الشمالية.

٣. **تحليل حبوب اللقاح**:_حبوب اللقاح التي توجد مع اللقى الاثارية يمكن ان تبين للآثاري أي نوع من النباتات كانت تنمو في المنطقة في الوقت الذي تركت فيه المواد على الأرض. يمكن ان تكون مجموعات نباتية خاصة صفة مميزة للمنطقة في حقبة زمنية معينة فقط في الماضي.

٤. **تعيين تاريخ حلقات الاشجار**:_تبين حلقات الأشجار السنوية أنماطاً مختلفة من المسافات المتباعدة بين الحلقات، اعتماداً على الرطوبة والجفاف في سنوات خاصة. كل سلسلة متعاقبة من السنين تشكل نمطاً فريداً من الحلقات. كثير من البقايا الثرية في اريزونا ونيو مكسيكو دوّن تاريخها بتحليل نظامي لحلقات جذوع الأشجار والأخشاب التي وجدت في المواقع.

٥. **تعيين التاريخ بحسب التقويم الزمني**:_بعض الحضارات المتقدمة، امثال المايا في اواسط اميركا، والمصريين والسومريين في العالم القديم كان لهم نظام تدوين بحسب التقويم الزمني وتواريخ بعض المواد الاثارية يمكن استنتاجها من كتابات منقوشة. المشكلة الكبرى امام الاثاري هي في الغالب حل شفرة أنظمة التقويم الزمني وتحليلها.

٦. **تعيين تاريخ من مواد ثقافية اخرى**:_توجد احياناً في مواقع اثارية في اوربا عملات نقدية معدنية مسجل عليها تواريخ مضبوطة

تقريباً. هذا يثبّت ان الموقع لايمكن ان يكون اقدم من تلـــك النقـــود المؤرخة، ولكن يمكن ان يكون احدث.

٧. **الصلة بخطوط ساحلية واضحة وسمات جيولوجية اخرى:** في مشالي اوربا حيث تستمر الاراضي الفنلندية والاسكندنافية بالارتفاع من البحر بنسبة ثابتة نسبياً، يمكن تدوين تاريخ اللقى الاثارية التي كانت في الاصل على ساحل بحر او على حافة بحيرة بحساب عـــدد تقريبي لمئات السنين الذي استغرق ذلك الخط الساحلي للارتفاع بهذا المقدار من الماء. حالة مذهلة من هذا النوع هي سلسلة النقوش او المنحوتات الصخرية على جرف صخري في شمالي النرويج التي لم يكن من الممكن من الوصول اليها الا بسفينة. وما دامت المنحوتات الان على ارتفاع عدد من الاقدام فوق مستوى سطح البحـــر، فانـــه يقدر ان الاعمال الفنية عمرها عدة الاف من السنين.

٨. **تعيين التاريخ الإشعاعي:** ـتعين التاريخ بالكاربون المشـــع احـــد أكثر التطورات العلمية المذهلة المؤثرة فـــي العمـــل الآثـــاري فـــي السنوات الحديثة. يعتمد هـــذا المـــنهج علـــى حقيقـــة ان النباتـــات والحيوانات تحوي مقداراً ثابتاً من النظائر الكاربونية المشعة، تدعى كاربون أربعة عشر (C_{14}) يتلف تدريجياً بعد الموت بنســـبة ثابتـــة تاركاً كاربون اعتيادياً (C_{12}).

بقياس كمية إشعاع كاربون ١٤ الباقي في عينة خاصة يستطيع الانثروبولوجيون الحصول على تاريخ تخميني لتلك العينة والمـــواد المرتبطة بها. هذا المنهج في تعيين التاريخ يضـــع مشـــكلة تعيـــين التاريخ الاثاري كله على أساس أكثر رسوخاً. جمع المواد (ويفضـــل

الفحم والخشب والأنسجة النباتية) للتحليل الإشعاعي، يتطلب عناية فائقة من ألآثاري ليؤكد ان المواد غير ملوثة بالاتصال بأشياء اخرى تؤثر في حساب كاربون ١٤ في العينة.

وبما إن معظم الكاربون المشع الذي يمكن قياسه يتسرب من المادة بعد ٤٥,٠٠٠ سنة فان منهج تعيين التاريخ لا ينفع في بقايا عمرها أكثر من هذا الرقم. ويأمل الانثروبولوجيون كثيراً ان يكتشف علماء الطبيعة أنواعاً أخرى من المواد المشعة لتعيين تواريخ مواد عمرها في مدى (٥٠,٠٠٠) الى (١,٠٠٠,٠٠٠) سنة.

ان تعيين تاريخ المواد يشغل حيزاً مهماً في نقاشنا لان كثيراً من التحليل الاثاري يعتمد اولاً على تثبيت عصور المواقع والمواد المختلفة بنسبة بعضها الى بعض. وحين يثبت الاثاري بعض تواريخ مواده فان مهمته تكون قد بدأت. يهتم الانثروبولوجي الحديث باستنتاج حقائق اجتماعية وثقافية عامة من أشياء المواد المتروكة في الارض. فمثلاً، إذا اكتشف بالتنقيب قرية صغيرة ووجد ان جميع بقايا البيوت متشابهة ما عدا واحداً أوسع كثيراً وأغنى وأحسن اثاثاً، فانه يمكن ان يستنتج ان البيت الاوسع يمثل مسكن رئيس القرية. ومن الناحية الاخرى، اذا كان على ارض البيت غير الاعتيادي عدد من اشياء الطقوس فان ذلك يمكن ان يبين ان شاغله الخاص هو زعيم ديني. استنتاجات معقدة من البقايا الاثارية تسمح للاثاري ان يتكلم على نمو إمبراطوريات وانقلاب اسر حاكمة، وتطور طبقة وسطى، وانتشار اديان جديدة، وزيادة تخصص حرفي، وانتصارات وانحدارات في الحروب وحوادث اجتماعية مهمة اخرى. ومن السهل

اذن رؤية سبب استطاعة الانثروبولوجي ان يكون له أسهام مهم في التاريخ، فضلاً عن حقول دراسية اخرى.

الانثروبولوجية الطبيعية

"استخراج الهياكل العظمية بالتنقيب عنها" هو الصورة النمطية الاعتيادية للعمل الميداني في الانثروبولوجيا الطبيعية، وما يزال هذا جزءاً مهماً من ذلك الفرع في الدراسة. احد أبطال الثقافة بين الانثروبولوجيين الطبيعيين هو الدكتور ل.س.ب. ليكر الذي أمضى معظم حياته في البحث عن بقايا الاحافير البشرية المتحجرة في شرقي أفريقيا.

مكتشفاته الحديثة من البقايا البشرية التي ترقى الى ما قبل مليوني سنة تقريباً، هي ثمرة سنوات كثيرة من العمل الميداني. يأخذ كثير من العمل الميداني في الانثروبولوجيا العملية نفسها، في التنقيب عن البقايا وتعيين تواريخها، التي وصفت للآثاري. في الحقيقة انهما، الانثروبولوجي والاثاري، يعملان معاً. الفرق الرئيس بين مجالي الدراسة هو ان الاثاري يبحث عن المعلومات المتعلقة بتاريخ الحضارة، في حين ان الانثروبولوجي الطبيعي يبحث عن الأدلة الخاصة بالتطور البايولوجي للانسان.

ينفذ الانثروبولوجيون الطبيعيون أيضاً بحثاً ميدانياً على مجتمعات بشرية على قيد الحياة. كان هذا النشاط في الماضي غالباً ما يتكون من الحصول على قياسات طول الانسان، ووزنه، ولون عينيه وصبغة شعره ولونه، واهم من ذلك كله قياس الرأس، او قياس الجمجمة. قياس الرأس بتقسيم عرض الجمجمة على طولها انه مفتاح مهم جداً في العلاقات بين السكان المختلفين او "أعراق"

الناس. وقد أظهرت تحريات حديثة ان قياس الرأس المفترض ان يكون ثابتاً ومعتمداً عليه، يمكن ان يؤثر فيه المحيط تأثيراً شديداً. فقد اصبح بعض السكان الذين كان يظن انهم من ذوي الرؤوس الطويلة بطريقة غامضة من ذوي الرؤوس المستديرة، وفرضوا بذلك ترك الوسيلة في التصنيف "العرقي".

لقد أنتجت تطورات ثورية جديدة في الانثروبولوجيا الحديثة مناهج دقيقة في قياس وملاحظة الانماط البشرية الطبيعية. وزيادة على ذلك صار الانثروبولوجيون الطبيعيون يهتمون بالخصائص الباطنية لجسم الانسان- مكونات الدم وسوائل الجسم الاخرى، قياسات شحم الجسم وبفحص طيات الجلد وبواسطة الاشعة السينية، ضغط الدم، نسب النمو، وكثير من خصائص الناس الاخرى. فقد اصبح تحليل اصناف الدم مهماً بصورة خاصة في السنوات الحديثة، لانه وجد ان أصناف الدم **A-B-D** وغيرها من مكونات الدم المعروفة قليلاً، هي مفاتيح ممتازة للوراثة الجينية.

علم اللغة (الالسنية)

لم يكن لدى علماء اللغة الا قليل من الأجهزة التي تساعدهم في العمل الميداني. فإذا وصل عالم اللغة الى المجتمع الذي يروم فيه دراسة لغة خاصة فانه يعيّن راوية يقدم له المعلومات (طوعاً وله القدرة على الكلام إلى العالم اللغوي بلغته المحلية) يطلب منه العالم اللغوي ان يلفظ كلمات وجملاً خاصة. كان العالم اللغوي يعتمد على أذنيه لالتقاط أصوات اللغة التي يسجلها كتابة في دفاتر ملاحظاته في شكل علامات صوتية- هي القباء خاصة بعالم اللغة بتسجيل أصوات

اللغة، وفي كثير من الأحيان يحتاج عالم اللغة إلى مترجم ليساعده ما لم يكن مقدم المعلومات ثنائي اللغة- يعرف لغتين.

غالباً ما يجمع اللغوي معلوماته عن اللغة في شكل قصص- حكايات شعبية وأساطير وغير ذلك، بحيث يمكن ان يكون عالم اللغة المحترف جامع مواد فوكلورية أيضاً.

الفونوغراف و (الحاكي) الذي اخترعه توماس اديسن (وسجل براءة اختراعه في سنة ١٨٧٧) احدث ثورة كبرى في مناهج اللغويين الميدانية. بعد سنة من إتاحة الفونوغراف للجمهور استعمل الانثروبولوجي ج.د. فيوكيس فونوغرافاً لجمع أربعين اسطوانة من عينات المفردات اللغوية ونصوص فولكلورية ومحادثات ومواد أخرى من الهنود الحمر الپاساما كودي في مين. صار من الممكن، أول مرة، خزن أصوات المتكلم ابن البلد لكي يعيد اللغوي تشغيل الجهاز لتحليل معلوماته التي حصل عليها.

كان العالم اللغوي في القرن التاسع عشر يحلل اللغات عموماً بالتناظر مع أصناف اللغة اللاتينية، لغة العلماء.

كان وصف اللغة التي لم تدرس سابقاً يشمل البحث عن الأسماء والصفات وحروف الإضافة (حروف الجر) السوابق واللواحق وعناصر أخرى معروفة في النحو. كان فرانتش بواس وطلبته هم الذين كسروا طوق النظرة الضيقة للصيغ النحوية اللاتينية. وركزوا على وصف لغات هنود أميركا في ما يخص عناصرها النحوية "الطبيعية".

وجد علماء اللغة ان كل لغة نظام فريد مستقل، مكتف ذاتياً في تصنيف وحداته اللغوية والحديث عن التجربة. وان بعضها لا

يمتلك حتى كلمات بالطريقة التي نفكر اعتيادياً بكلمة "كلمـــة". لغــة الاسكيمو مثلاً تعبر عن افكار مثل وقف الرجل على التــل العــالي" بمجموعة مــن "جزئيــات الفكــرة" او المورفيمــات "أي الوحــدات الصرفية"، التي لايمكن فصلها الى ست او سبع كلمات (بضمنها أداة التعريف ال، كما في الجملة العربية) بل انها ملتصقة معاً في جملة- كلمة" مفردة.

وعلى الرغم من محاولة علماء اللغة وصف لغات مفردة في ما يخص الأنماط الجوهرية للنحو والأصوات، فأنهم عقدوا مقارنات نظامية بين اللغات، باحثين عن "عوائل لغوية" منحدرة من أســلاف مشتركة، وكما وصفنا سابقاً كان اكتشاف إن معظم اللغات في أوربا تنحدر من لغة هندو أوربية ذات أصل مشترك، كان واحداً من أعظم التطورات الثورية في علم اللغة. تكتشف اللغات المتصــلة بمقارنــة نظامية مفرداتها لمعرفة تطابق الصوت والمعنى. فمــثلاً، إذا كانــت **hound** في الانكليزية تشير إلى نوع مــن الكــلاب، و**hund** فــي الألمانية تشير إلى أفضل صديق للإنسان، فمــن المحتمــل ان كلتــا الكلمتين مشتقة من شكل سلفي مشترك. المقارنة النظامية بعدد كبير من زوجين من الكلمات الانكليزية. الألمانية يــوفر أدلــة علــى ان اللغتين ذواتا صلة. يصبح منهج العالم اللغوي المقارن معقداً تمامــاً لان اللغات جميعاً تتغير في اللفظ والنحو على مرّ السنين والقــرون. وان التشابهات بين الألمانية والانكليزية يسهل نسبياً تعيينها، ولكن الأمر أصعب في فهم مثلاً، كيف إن للكلمة الروسية التي تلفظ أديــن **adyin** صلة بكلمة **one** الانكليزية.

لقد ساعدت كثيراً اجهزة ميكانيكية حديثة مثـل المسـجلات المغناطيسية واجهـزة رسـم الطيـف الصـوتي والكومبيـوترات الالكترونيـة، سـاعدت منـاهج بحـث علمـاء اللغـة وكـذلك الانثروبولوجيين، ولكن اياً من هذه الاجهزة لم يؤدِ الى أي تعقيد في التحليل المضني الذي على الباحث تنفيذه بعقله وعينه ويديه.

مناهج الانثروبولوجيا الاجتماعية

يجمع العالم الانثروبولوجي الثقـافي (الاجتمـاعي) مـواده الاولية بالعمل الميداني في مجتمعات بدائية او غيـر بدائيـة حيـث يعيش عادة عدة شهور. (كثير من الدراسـات الميدانيـة الجاريـة تستغرق اكثر من سنة) يحاول ان يراقب قدر الامكان طـرق حيـاة الناس الذين يدرسهم. توجد كثير من الابداعات الحديثة في تقنيـات العمل الميداني، غير ان مناهج العمل الميداني القديمة والجديدة التي يستخدمها الانثروبولوجي في تنويعات حول اجرائين رئيسين:

١. مقابلة مقدمي المعلومات.

٢. مراقبة مشاركة.

الانثروبولوجي الاجتماعي، مثل العالم اللغوي، يبحث عن مقدمي معلومات عارفين، يعتمد عليهم- أولئك الناس في المجتمـع الـذين يعرفون أكثر الأشياء عن حياة المجتمع، وهم أكثرهم رغبة في قول كثير عن طريقة الحياة المحلية. وفي أمـاكن أخـرى يجـب علـى الانثروبولوجي العمل بجد لتثبيت ثقة كافية لكي يوافقوا على إعطاء معلومات شاملة.

مرة اخرى الانثروبولوجي، مثل العالم اللغوي، يجب أحياناً ان يستأجر مترجماً، ما لم يكن هو قد تعلم اللغة المحلية مسبقاً...الآن، بطبيعة الحال، يوجد بأعداد متزايدة في المجتمعات اشخاص قديرون يعرفون لغتين، لغتهم الثانية هي الانكليزية او الفرنسية او الاسبانية، غير ان معظم الانثروبولوجيين يسعون الى تعلم اللغة المحلية في اثناء مدة عملهم الميداني- حتى وان كان العمل ممكناً بلغة الانثروبولوجي نفسها. ان اسباب اهتمام الانثروبولوجي باللغة المحلية ثلاثة:

١. يشعر معظم الناس في المجتمعات البدائية او الشعبية بتزايد الحميمية والثقة بأولئك الغرباء الذي يحاولون تعلم لغتهم.

٢. الانثروبولوجي الذي لايعرف التكلم باللغة المحلية يفقد كثيراً من المعلومات لانه لايفهم المحادثات الجارية حوله.

٣. غالباً ما تعبر المعاني الاجتماعية عن عناصر سلوك انساني تعبيراً ضعيفاً في شكله المترجم، فلا يستطيع الانثروبولوجي ان يفهم فهماً دقيقاً حتى يتاح له وصف كامل بلغته الاصلية.

لقد علمتنا تجارب الانثروبولوجيين وغيرهم عبر السنين انه حتى في مجتمع صغير أي مقدم معلومات لا يعرف كل شيء عن الحياة في ذلك المجتمع يكون دقيقاً دائماً في قول كل ما يعرف. لعل أي مقدم معلومات في مدينة صغيرة يعرف كثيراً من الشرطة والأطباء فيها. يعرف معظم مقدمي المعلومات المخازن المحلية وما يباع فيها من سلع. ولكن القلة من مقدمي المعلومات يمكن الاعتماد عليهم بانتظام في قضايا ماذا يأكل أهل المدن في العشاء وما آراؤهم

بالغرباء، وأين يذهب الناس للعناية الطبية، وأمور إنسانية معقدة أخرى. لذلك يحاول الانثروبولوجي أن يعين ويستفيد من خدمات عدد من مختلف مقدمي المعلومات الذين يشغلون مناصب مختلفة في المجتمع المحلي. فيحاول أن يقابل أفراداً من مختلف الجماعات العائلية، ومختلف الأحياء (المحلات)، ومختلف الطبقات الاجتماعية، والوحدات الدنيا الرئيسة الاخرى في المجتمع المحلي.

ويمكن تدقيق المعلومات التي يقدمها هؤلاء الأشخاص جيدا للتأكد من دقتها. وغالباً ما يكون أبناء الطبقة العليا في قرية لا يعرفون جيداً عن تفصيلات سلوك ابناء الطبقة الدنيا والعكس بالعكس.

وحتى أفضل مقدمي المعلومات الذين يدقق بعضهم بعضاً يزودون الانثروبولوجي بصورة مركزة لا تفي بالمرام عن الحياة في المجتمع. قد يكون المواطن غير واع تماماً او يستخف فلا يذكر معالم ثقافته التي لها اهمية عظيمة للمراقب الغريب. كثير من الثراء في المعلومات التي يطلبها الانثروبولوجي من القبيلة او القرية او الجماعة التي يدرسها يمكن الحصول عليها فقط بالمراقبة المشاركة- مشاركة الانثروبولوجي في النشاطات نفسها. يأمل الانثروبولوجي ان يكون مقبولاً في الحياة النظامية المألوفة في المجتمع الذي يمكن ان يكون حاضراً فيه ويشارك في نشاطات الصيد، وزراعة المحاصيل، والطقوس الدينية، ومراسيم بدء العمل، والإعراس، والوفيات وكذلك الصيغ المكررة (الروتين) في التفاعلات الاجتماعية- كالزيارات والقشبة (القيل والقال) والألعاب ووسائل الاستجمام والترفيه الأخرى في المجتمع.

"الانثروبولوجي المراقب المشارك يحاول انجاز عدة أهداف رئيسة:
أولا: يأمل، بكونه منهمكاً بصورة واسعة في الحياة المحلية، أن يستطيع نيل احترام الناس المحليين وثقتهم، لذا فأنهم يشعرون بالثقة فيه ويكشفون له راغبين عن معالم حياتهم الخاصة.
ثانياً: تكون المشاركة أحياناً أفضل طريقة لرؤية التفصيلات المعقدة للسلوك الإنساني. فمثلاً، طقس قبيلة البويبلو في الاستمطار- لا يمكن ان يصفها وصفاً كاملاً مقدم المعلومات مهما كان بليغاً. فلا بد له من مشاهدة الطقس فيستطيع عندئذ ان يسأل أسئلة ذكية عنه، من اجل فهم أكمل.
ثالثا: غالباً ما يجد الانثروبولوجي المعنى العاطفي لنشاط إنساني معين لا يصبح كاملاً لديه حتى يخوض تجربة النشاط بنفسه. وهكذا فان الانثروبولوجي متحرٍ يرغب في اكتشاف كيف "يشعر" لدى المشاركة في "حملة صيد شاقة، او الرقص طوال الليل في احتفال للحصاد، او الجلوس في حجرة مظلمة ليشاهد ويستمع الى أداء "شامان" أي رجل طب، موهوب وهو يعالج شخصاً مريضاً.

في العمل الميداني لهذا الكاتب بين شعب اللابيش في شمال شرقي فنلندة، تصبح التعقيدات، والانفعالات، والتفاعلات البارعة للرجال والحيوانات في طرد غزال الرنة بعد ان يعمل فعلاً في محاولة تطويق واحتيال بعض الحيوانات المراوغة.

قواعد السلوك

غالباً ما يشير الانثروبولوجيون الى ان طرق حياة مجموعة من الناس تشمل كثيراً من عادات او تقاليد السلوك التي يمكن التنبؤ بها، المنتظمة انتظاماً عالياً بحيث لاضرورة إلى الحساب الإحصائي

لإقامة الدليل على التعميمات التي يقوم بها الانثروبولوجي. مثل هذه القواعد العالية الانتظام للسلوك تتضح جداً في اللغة. اننا لا نحتاج الى دراسة عينة واسعة من حاملي المعلومات من اجل اكتشاف ما هو ماضي الفعل (يركض) الأساس في الانكليزية. ان منطق انماط (قواعد) اللغة هو ان جميع متكلمي الانكليزية تقريباً يتفقون على استعمال مصطلح ran (ركض) بانه الماضي. في المجتمعات البسيطة. يبين الانثروبولوجي ان كثيراً من مواد السلوك والاعتقاد تتحكم بها قواعد متماثلة. ان قواعد أي لغة، في الحقيقة، يمكن النظر اليها بانها مثال واضح على التعميم بان السلوك الاجتماعي في أي مجتمع يتبع قواعد منتظمة- تقاليد واعراف ومعايير، بمختلف المواقف- التي يتعلمها الافراد وهم يتربون في مجتمعاتهم الخاصة.

ان التفاصيل الرئيسة لقيادة السفن، والقاء الشباك، وصيد الأسماك، يحتمل ان تكون مشابهة عند كل جماعة صيادي سمك في قرية اسكيمو لصيد السمك. وليس من الضروري ان يجري الانثروبولوجي استثناء صيادي السمك لوصف العناصر الرئيسة لهذه النشاطات.

هذه القواعد (الأنماط) المنتظمة للسلوك في المجتمعات البشرية كلها، تجعل من الممكن للإفراد في كل مجتمع ان يتنبأوا بسلوك بعضهم بعضاً ويتفاعلوا من اجل إشباع رغبات متبادلة. وحتى المشاجرات والحرب تجري على وفق "قواعد" وتقاليد. ما اشد غضب الجنود البريطانيين حين وجدوا ان الثوار الأميركيين لم يتصرفوا على وفق التقاليد الأوربية للسلوك العسكري المقبول!

غير ان التسليم بقواعد السلوك أدى أحيانا الى جعل الانثروبولوجيين وغيرهم ان يكون لديهم الانطباع بان المجتمعات البدائية والشعبية عبيد العادات والتقاليد، مع شيء قليل من التنوع في السلوك ضمن المجتمعات المحلية.

وقد وصف أولئك الإفراد في المجتمعات البدائية الذي يبدون مختلفين عن أوطأ مستوى لمعدل السلوك بأنهم "منحرفون" او "شاذون"، وبهذا حافظوا على الوهم بان معظم الناس في القبيلة او القرية هم متشابهون كثيراً.

الانثروبولوجي "أداة بحث"

كتب الانثروبولوجيون الاجتماعيون احياناً تقاريرهم وكتبهم عن مجتمعات بدائية متغاضين عن تقديم الأدلة المستعملة للوصول الى نتائج عامة. وقد اكد بعض الانثروبولوجيين ان تعميماتهم بشأن الشخصية، واللهجة العاطفية، وروح الجماعة لطريقة خاصة للحياة لا يمكن إظهارها ايجابياً بأدلة نظامية. يجب على القارئ بالواقع، ان يثق بأمانة وايجابية الانثروبولوجي، مثلما يجب ان يترك الحكم على عمل فني الى خبرته الذاتية الفردية.

هذا العنصر الذاتي في ميدان العمل الانثروبولوجي تعرض لهجوم شديد. فقد أشار االنقاد، مثلاً، الى ان الانثروبولوجيين الاوائل، ولاسيمات روث بيندكنت، قد وضعوا طرق حياة شعوب الزوني والپويبلو الهندية الامركية بأنها متناسقة ومعتدلة ومسالمة-غنائية في كل طريقة يمكن تخيلها. ولكن الانثروبولوجين فيما بعد جمعوا ركاماً من الأدلة ان شعوب الپويبلو هؤلاء أنفسهم مصابون بالقلق وسريعو الشك واتهام بعضهم بعضاً بالسحر. وحين يعرف

المرء هذه التناقضات في تقـارير الانثروبولـوجيين عـن شـعوب البويبلو، فانه قد يسأل هل يوجد أي شـيء فـي العمـل الميـداني الانثروبولوجي جدير بالثقة؟ علماء النفس وعلماء الاجتماع وغيرهم الذين يتوقعون أن تكون معلومات البحث جميعاً مصـحوبة بجـداول إحصائية بحسابات مناسبة عن المعدلات والاحتمالات، يشيرون الـى ان التقارير الانثروبولوجية لاتبين عادة كم من مقـدمي المعلومـات يذكرون تعميمات خاصة، وكثير جداً ما لا يصف الانثروبولوجي أي سلوك طردي او اقوال تقوده الى اعطاء تصميم خاص عـن تقاليـد شعب معين. كان الانثروبولوجيون احياناً مهمين نوعـاً مـا، حتـى متكتمين، على طبيعة رقابتهم في العمل الميداني. ان مواجهة هـذه الانتقادات الخطيرة انتجت مقداراً عظيماً من تحليل الذات والخـلاف ضمن فئات الانثروبولوجيين. كثير من الانتقادات التي تخص الذاتية واهمال الادلة كانت شكاوى قانونية مقبولة، وبحث الانثروبولوجيون عن طرق للتغلب على الذاتية في مناهجهم. وفـي الوقـت نفسـه، حاولوا الحفاظ على عناصر ذلك المنهج الانثروبولوجي التي كانـت حاسمة للمهمات العلمية النى ينطلق اليها الانثروبولوجيـون. فـي بعض مجالات الدراسة، تبنى الانثروبولوجيون تقنيـات تجريبيـة- وخصوصاً اختبارات متنوعة- لعلمـاء اجتمـاع آخـرين. أفـادت الدكتورة گورا دوبوا في دراستها شعب الالور الذين ذكروا سـابقاً، فائدة عظمى من اختبارات بورشاخ للكشـف عـن دوافـع الفـرد وشخصيته، وتواريخ الحياة، وأحلام الإفراد، وتحاليل الرسوم، فضلاً عـن جميـع معلومـات اثنوغرافيـة قياسـية. وسـلمت المـواد السايكولوجية الى تحليل خبراء فسروا الاختبارات بأنها "عميـاء"-

أي من غير معرفة للمواد الثقافية التي جمعها الانثروبولوجي. قدمت دراسات انثروبولوجية اخرى فائدة جداول استبيانية وإجراء عينات دقيقة مستعادة من مناهج علم الاجتماع، (في مشاريع مشتركة في الغالب، تشمل انثروبولوجيين وعلماء الاجتماع). دراسة مقارنة لتوجيه القيم بين هنود الزوني والناڤاهو والمرمون، و"التكسان"، والاميركيين الأسبان، أجراها في جنوب غربي الولايات المتحدة فريق من الانثروبولوجيين وعلماء الاجتماع. واعدّ استبيان يتضمن سلسلة من المواقف كما في الموقف الآتي:

أصيب حقل محصولات رجل بالفشل، او دعنا نقل، خسر معظم اغنامه او ماشيته، احتاج هو وعائلته المساعدة من احد الناس اذا كانوا يريدون اجتياز الشتاء. ثمة طرق مختلفة للحصول على المساعدة. أي من هذه الطرق الثلاث أفضليها؟"

افترض الأجوبة الاختيارية التي وضعت لهذا السؤال، تدل في ما اذا كان المجيب يقرر:

١. الاعتماد في الأغلب على الأخوة والأخوات وأقارب آخرين للمساعدة.

٢. الذهاب الى مصادر خارج المجتمع المحلي لطلب العون.

٣. التوجه الى طلب المساعدة من أقرباء مهمين اكبر عمراً او زعماء معتادين على ادارة الامور في جماعته.

جمعت الإجابات من عينة من الأفراد في كل المجتمعات الخمسة التي درست ثم رتبت النتائج بعناية في جدول وحللت تحليلاً أحصائياً.

يبنى البحث الانثروبولوجي الحديث، عموماً، عناية متزايدة في تقديم الادلة التي يمكن ان يفحصها فحصاً مستقلاً ويقيمها باحثون آخرون.

تركيبة المعطيات الانثروبولوجية

التعقيد المتزايد لدى العاملين في الحقل الانثروبولوجي والبحث عن مزيد من أدوات البحث أمثال الاختبارات السايكولوجية، استبيانات التقييم، الإحصاءات الرسمية الدقيقة للسكان، تقنيات أخرى زادت كثيراً في فائدة التقارير الانثروبولوجية التي جلبت من الحقل. ولكن تحول الاهتمام اكثر فأكثر من مشكلات كتابة التقارير الدقيقة الى البحث عن مزيد من التعميمات (الاحكام العامة) التاريخية والعلمية المفيدة من المعلومات المتاحة الآن من مئات المجتمعات.

تطور مهم حصل في نمو المنهج الإحصائي لفحص التعميمات الانثروبولوجية. حاول بعض الانثروبولوجيين دراسة إحصائية ثقافية قبل عقود، غير ان هذا النمط من الدراسة بدأ حديثاً كشف فوائده. ظهرت أسباب هذا النجاح كامنة في الإعداد المتزايدة، وجودة التقارير الاثنوغرافية الأولية، وتعقيد أعظم في صياغة الأسئلة للبحث النظري، والمناهج المتطورة في فحص سريع للمعلومات وتشمل استعمال كومبيوترات الكترونية. قبل عقود حين كان أي انثروبولوجي يريد معرفة معلومة من عينة ستين مجتمعاً مثلاً، حول العالم. كان عليه ان يقرأ التقارير الميدانية المفردة- الكتب، الكراريس وأوراق البحث- عن جميع القبائل في عينته. بعد بحث مضنٍ في هذه الإعمال المفردة، لعله يتعلم ان كثيراً من هذه المعلومات التي يحتاج اليها مفقودة. منذ الحرب العالمية الثانية،

نتيجة لجهود دكتور جورج مردوك ومشاركيه، تأسست أضابير مجالات العلاقات الإنسانية"، فيها معلومات من مئات المجتمعات، من جميع المناطق الثقافية في العالم، لخصت وجمعت في بطاقات وضعت في أضابير على وفق نظام فهرسة عام. فمثلاً، من يرغب في أيجاد معلومات عن أنواع الألعاب التي تلعب في مجتمعات حول العالم، يمكنه الرجوع الى الأضابير يعين رقم الفهرس المناسب، ويجمع المعلومات المطلوبة في مدة قصيرة من الزمن تغنيه عن الرجوع الى المصادر. الاثنروغرافية الأصلية". أضابير مجالات العلاقات الإنسانية" متاحة الان في عدد من الجامعات الكبرى في الولايات المتحدة.

تصانيف الباحثين كانت آنذاك تحلل احصائياً. ولكن كثيراً من الانثروبولوجيين كانوا يعارضون الدراسات والاحصاءت الثقافية المقارنة، فهم يقولون ان مثل هذا الاستعمال للمعلومات الاثنوغرافية يبعد المعلومات كثيراً من السياق السلوكي الذي يحدث فيه، جاعلة مثل هذه المعلومات غير حقيقية او مجردة او حتى مغلوطة بكل ما في الكلمة من معنى. ويسمح مؤيدو المنهج عموماً بحالات الضعف في الإجراءات ولاسيما في تيسر التقارير الاثنوغرافية الخام وترجمتها، ولكنهم يشعرون ان هذه الدراسات الإحصائية الثقافية المقارنة تختبر فرضيات خاصة يمكن ان تخضع لمزيد من الدراسة بوسائل اكثر تركيزاً في مجتمعات مفردة.

خلاصة واستنتاجات

في جميع اطوار البحث الانثروبولوجي حدثت زيادة عظيمة في استعمال الاجهزة التكنولوجية: أجهزة التسجيل، التصوير الفوتوغرافي المعقد، اجهزة الأشعة السينية، التسجيل الصوتي والحواسيب الالكترونية. في الإجراءات غير الميكانيكية. لجمع المعلومات، أصبح الانثروبولوجيون اكثر حساسية لضرورة الوصف الصارم والدقيق للملاحظات الكامنة وراء التعميمات (الأحكام العامة) الاثنوغرافية. وحدثت زيادة عظيمة في استعمال علم الإحصاء في تحليل انواع معينة من المعلومات الانثروبولوجية. التعميمات التي كانت تعدّ حقائق لايرقى اليها الشك، اعيد فحصها. واصبحت الانثروبولوجيا في كثير من الحالات تحظى "باحترام" علمي اكثر. ومن المحتمل ان الانثروبولوجيا سوف تواصل دمج بعض المناهج الوصفية الكلية للعلوم والدراسات الثقافية مع مزيد من الممارسات التحليلية والإحصائية للعلوم الاجتماعية.

الفصل الرابع
بحث متميز في الانثروبولوجيا

قليل من الناس من ينكر ان "دراسة الانسان" تهتم بظاهرات معقدة تعقيداً عظيماً. في الحقيقة كثير زعم من نقاد العلوم الاجتماعية ان السلوك البشري بعيد في الاساس عن متناول الدراسة العلمية المؤثرة. وعلى وفق هذا الخط من الحجج فان تاثير "ارادة الإنسان الحرة" والإمكانات الهائلة غير المحدودة من التنوعات في السلوك البشري تجعل جهود التعميم- إطلاق الأحكام العامة- عن الانسان والحضارة غير مثمرة كلياً، ان لم تكن خطرة. وزيادة في سوء الامور، ثمة روح ذاتية حتمية في دراسة الإنسان نفسه— مشكلة لا يواجهها علماء الطبيعة في دراستهم الذرات والحيوانات والفيزياء الفلكية.

نقاد العلوم الاجتماعية (بضمنها الانثروبولوجيا) بوسعهم الإشارة الى "حقائق" متصارعة، وتناقض في المصطلحات والتشعبات الميئوس منها في الافتراضات النظرية بأنها أدلة على عدم نضج هذه الدراسات.

يشير المتشككون عادة الى تغايرها عن الدقة والإتقان العظيمين للرياضيات الموجودة في الفيزياء والكيمياء. انهم يسرعون الى ذكر التقدم في أنظمة الاتصالات في أوتوماتيكية الصناعة واحدث من ذلك، في تكنولوجيا الفضاء دليلاً على التقدم في "العلوم الحقيقية"- التقدم الذي يعتقدون ان العلوم الاجتماعية لا يمكنها ان تباريها.

وبالمقارنة مع الدقة المتحققة في اطلاق الصواريخ الحاملة للإنسان الى الفضاء، تبدو الدراسة العلمية للإنسان مشوشة جداً وغير ذات تاثير.

الانثروبولوجيا، مثل العلوم الاجتماعية الاخرى، مبدأ فتـي، واي ميدان علم يجب ان يمر من خلال مرحلة من النمو طويلة نسبياً. ويجب ان تتضمن الحقبة التكوينية جمع كثير من المعلومات الوصفية، والتجربة والخطأ في اختبار المناهج والنظريات (مع ولع يتعذر اجتنابه او تحريات مؤقتة، وتنظيم تصنيف اولي "الانماط" موضوعات تعدّ لدراستها. وخطوات اخرى كثيرة في "الطور الناضج" اللاحق يمكن تطوير مبادئ عامة وقوانين علمية. كثير من الدراسة الانثروبولوجية السائدة ما تزال في طوري جمع المعلومات والاستكشاف غير ان جمع المعلومات الوصفية عن تاريخ البشر وشعوب العالم ليس انجازاً صغيراً بحد ذاته، وان خزين المعلومات هذا، اذا ما جمعت، يمكن ان يوظف في مختلف الاستعمالات.

دليل التطور البشري

ربما عاش بعض اسلاف الانسان القرد الذي يستعمل ادوات بشرية في شرقي افريقيا قبل مليوني سنة تقريباً. سلسلة جديدة من مكتشفات احافير متحجرة من تنجانيقا، اعلن عنها دكتور أ.س.ب. ليكي في ربيع ١٩٦٤ قدر عمرها تقريباً ١,٨٠٠,٠٠٠ سنة. وقد وجد دكتور ليكي عدداً من المستحجرات في المنطقة نفسها، وبعض بقايا هذه المخلوقات- الانسان القرد وجد مع ادوات حديد خام- دليل واضح على حضارة شبيهة بالبشرية. أعمار هذه المستحجرات الجديدة "المهمة ثُبتت بطريقة البوتاسيوم- ارگون (استناداً الى

تحلل، شكل غير اعتيادي للبوتاسيوم)، بنسبة ثابتة، بإطلاق غاز الاركون، وترك البوتاسيوم الاعتيادي، اطلق دكتور ليكي على آخر اكتشاف له اسم "الانسان المقتدر" وجد الانثروبولوجيون وزملائهم في جنوب افريقيا عشرات العينات من المتحجرات للانسان القرد الذي سمى "القرد الجنوبي". وعلى الرغم من الدلالات الضمنية للاسم، ثمة ادلة كثيرة الى ان هذا المخلوق الصغير كان يسير منتصباً (طوله نحو أربعة إقدام، استعمل العظام والأحجار أدوات له، وله وجه شبيه بوجه الإنسان وأسنانه، مزود بدماغ حجمه بين دماغ القرد ودماغ الإنسان الحديث. هذه الخصائص وضعت "الإنسان الجنوبي" على الحدود بين الإنسان والقرد. والى هذا الحد، إذن يبدو كأن أفريقيا قد تكون "مكان ولادة الإنسان".

ان الادلة التي تجمعت في اثناء القرن التاسع عشر التي تخص التطور البايولوجي للانسان مؤثرة حقاً. الجماجم وبقايا الهياكل العظمية المتحجرة للإنسان القديم وجدت في مئات ألاماكن المختلفة في أرجاء العالم. الدليل الاول على انسان نياندرتال، وجد قبل اكثر من مئة وخمسين سنة،أكملته اعداد من مكتشفات في ألمانيا وفرنسا واسبانيا وايطاليا ويوغسلافيا وبلجيكا. المستحجرات الشبيهة بإنسان نياندرتال التي وجدت أيضاً في فلسطين وإفريقيا وجنوب شرقي أسيا، تبين توزيعاً واسعاً حول العالم لهذا النوع من الانسان القديم. عاش انسان نياندرتال قبل نحو ١٠٠,٠٠٠ سنة- احدث بكثير من "القرد الجنوبي" و "الانسان المقتدر".

ان الصلات بين انسان نياندرتال واناس المتحجرات الافريقية هي سلسلة متحجرات من شرقي اسيا ولاسيما انسان جاوة

الشهير (الانسان القرد المنتصب) وانسان بكين. وجدت بقايا إنسان بكين بأدلة قوية على استعمال بشري للنار. ان جميع مناهج التسجيل الجيولوجية وغيرها تبين كلها ان انسان جاوة والاناس القدماء المشابهين له كانوا يعيشون على الأرض قبل ٦٠٠,٠٠٠ سنة. ومن المهم ملاحظة المستحجرات هي في منتصف المسافة بين القرد الجنوبي والانسان الحديث. جزء مهم جداً من التطور البايولوجي البشري كان الزيادة المستمرة في حجم الدماغ والتعقيدات.

ادلة المستحجرات للانسان الحديث كلياً (الانسان العاقل) وفيرة في اوربا واسيا وافريقيا. هذه المستحجرات عمرها من ١٠,٠٠٠ الى ٣٠,٠٠٠ سنة. لذلك يبين كثير من الانثروبولوجيين ان "الانسان العاقل"تطور في ازمنة حديثة نوعاً ما. ومن الناحية الاخرى، يبين دكتور ليكي ان اكتشافه الجديد في شرق افريقيا "الانسان المقتدر" "حديث جداً" في حجم دماغه وبنية فكيه، مبيناً ان "الانسان العاقل كان قد تطور تطوراً كاملاً تقريباً قبل اكثر من مليون سنة.

اناس المستحجرات وبقايا ثقافاتهم وجدت حديثاً في العالم الجديد- اميركا الشمالية والجنوبية- كلها تروي القصة نفسها- اسلاف الهنود الاميريكيين لعلهم جاءوا من سيبريا قبل اقل من ٥٠,٠٠٠ سنة. لم يكن ثمة انسان قرد في الاميركيتين.

دليل التطور الحضاري البشري

عاش اسلاف الانسان اكثر من مليون سنة في زمر صغيرة من الصيادين والباحثين عن القوت، مستعملين أسلحة وآلات صيد

بسيطة جداً من الحجر والعظم والخشب. حدثت تغيرات قليلة مهمة جداً في المعدات الحضارية لإسلاف الإنسان في أثناء المليون سنة الاولى، بقدر ما يمكن التقدير من البحث التي تشكل أدلتنا الرئيسة عن تلك الحقبة المبكرة من تاريخ الحضارة تبين تهذيباً وتخصصاً تدريجياً جداً في معدات الإنسان من أدوات حصى خشن الى فؤوس جيدة الشكل.

التنقيبات الآثارية في غربي اوربا توفر ادلة عن تطور مهم في التعقيدات الثقافية قريباً من نهاية العصر الجليدي. وفي أثناء الـ ٤٠,٠٠٠ سنة الأخيرة من التجلد العظيم قام "أبناء الكهوف" الذين كانوا يتجولون في ما هي اليوم فرنسا واسبانيا بتطوير نمط في رسومهم في الكهوف واعمالهم الفنية الاخرى التي ما تزال حتى اليوم ترقى الى اعظم منجزات الانسان الفنية. رسموا على جدران الاقباء التي تحت الارض ويتعذر الوصول اليها تشبيهات متعددة الالوان لحيوانات الماموث والبيسون وغزال الرنة وحيوانات اخرى التي يصطادونها. يعتقد عموماً ان هذه الروائع انتجت لاغراض عملية في سحر وشعائر الصيد اكثر مما تمثل الفن من اجل الفن.

ان التغيرات الثورية الحقيقية في الحضارة الانسانية التي تجعل حياتنا الجديدة والمعقدة ممكنة تطورت في اثناء الـ ١٠,٠٠٠ سنة- جزء ضئيل من مجمل التاريخ الحضاري للانسان. سلسلة الاختراعات التي غيرت تغيراً اساسياً طريقة عيش الانسان هي طريقة تدجين النباتات والحيوانات. ان التقنيات التي قام بها روبرت بريدوود وآخرون في العراق وايران وفلسطين اعطتنا حديثاً صورة افضل جداً من البدايات المحتملة "لثورة انتاج الطعام". الادلة الآثارية

والنباتية تؤيد تأييداً قوياً ان الشرق الاوسط "مكان ولادة" الزراعة المحتمل لكثير من النباتات التي تعلم الانسان زراعتها والاهتمام بها. وحصادها كانت تنمو نمواً برياً في ذلك الجزء من العالم. في بعض المواقع من المنطقة نفسها، وجد الآثاريون "مناجل" حجرية لعلها تستعمل لحصاد النباتات البرية في زمن قبل اكتشاف طرق لزراعة المحاصيل والعناية بها لانفسهم.

نفذ بريدوود وجماعته تحرياً نظامياً في موقع قرية قديمة على سفح تل في العراق. يبدو ان القرية التي تدعى "جرمو" كانت تتكون من مجموعة من نحو خمسة وعشرين بيتاً من الطين. زرع أهلها الحنطة والشعير واعتنوا ببعض الحيوانات المنزلية، غير انهم اعتمدوا كثيراً على الطعام البري ايضاً. هؤلاء الناس وناس قرى قديمة مشابهة في الشرق الادنى، لعلهم كانوا الاسلاف غير البعيدين لفلاحي العالم الأوائل. أرجعت عينات الكاربون المشع بقايا القرية الى نحو ٨,٥٠٠ سنة.

لعل قرى زراعية صغيرة تشبه "جرمو" كانت على بعد خطوة او خطوتين من طريقة الحياة في الصيد وجمع القوت، ولكنها خطوات جبارة. بسيطرة هؤلاء الناس على مؤونة طعامهم الخاص الى درجة أعظم مما كان ممكناً لصيادي العصر الحجري. استطاعوا ان يعيشوا في قرى مستقرة واستطاعوا تموين سكان أوسع وتمتعوا بوقت فراغ أكثر. أتاح لهم وقت الفراغ والتسكع ومكنهم أيضاً من تطوير انواع جديدة من الصناعات اليدوية- الفخار والنسيج وصناعة الأدوات وصناعات اخرى. ان توفر مساحات من الأرض

الغنية للزراعة في الشرق الأدنى، جعلها مسألة وقت فقط قبل ان يمد زارعو قرى سفوح التلال الصغيرة نشاطاتهم الى أودية الأنهار.

بنيت اوائل مدن العالم في الوديان الخصيبة لنهـري دجلـة والفرات. وجرت اعمال تنقيب آثارية عظيمة في الكشف الدقيق عن ادلة على الانتقال من القرى الزراعية مثل جرمو الى تركيز النـاس في مدن مثل العُبيد التي نشأت منها الحضارة السومرية. امكن بناء المدن بأبتكار وسائل الري في وديان الانهار ويبدو ان تلـك المـدن القديمة الاولى كانت تحكمها انظمة دينية من كهنة سـيطروا علـى النشاطات الدنيوية لانتاج العظام والصناعات اليدويـة فضـلاً عـن فعاليات الشعائر المقدسة، التي تشمل علاقـة الانسـان بالكائنـات الخارقة.

الادلة التي كشفتها التنقيبات حتى الآن تدل على ان تلك المدن الاولى تطورت قبل ٤٠٠٠ سنة من ميلاد المسيح. تبين الادلـة ايضـاً ان حوالي ذلك الوقت نفسه وجدت تقنيات وآلات جديدة كثيرة ومذهلـة اخترعها سكان بلاد الرفدين. تطور استخلاص واسـتعمال المعابـد وصناعة البرونز من مزج القصدير والنحاس، وبدأ الحرفيون القيام بعمل ممتاز رائع في صناعة الاسلحة والزخرفـة والآلات والفخـار وسلع اخرى، وبدأ حفظة سجلات المعادن استعمال علامـات أكثـر واكثر تعقيداً لرقابة وحفظ وصولات الحبـوب وإجـراءات اخـرى. وظهر للوجود اول لغة ورياضيات مكتوبة. وطـور خـدم المعابـد وسائل دقيقة لحفظ تعاقب الفصول بمراقبة حركة الإجرام السـماوية فظهر علم الفلك للوجود، اقدم العلـوم وظهـر معـه اول التقـاويم الزمنية.

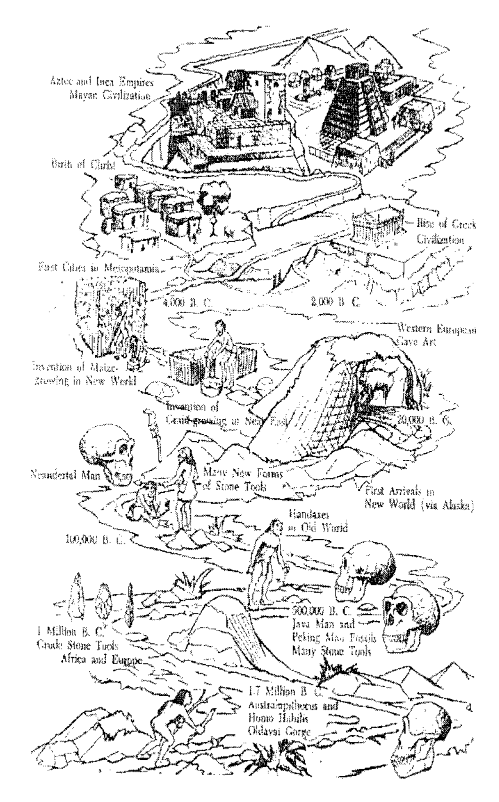
ان اختراعات واكتشافات سكان بلاد الرفدين انتشرت انتشاراً واسعاً في العالم القديم. وظهر من الادلة الآثارية ان الحضارات القديمة في مصر والهند وحتى الصين كانت نتيجة انتشار تلك الابتكارات الستراتيجية- الزراعة وصناعة المعادن وحفظ السجلات- من مهد الحضارة الاصلي، بلاد الرافدين.

في النقطة التي القى التسجيل الآثاري لماضي الإنسان ظلاله تدريجياً على اقدم فجر للتاريخ المدون، فان الانثروبولوجيين والمؤرخين يعتمدون اعتماداً عظيماً بعضهم على بعض في محاولتهم الحصول على معرفة اتم عن نشوء الحضارة.

يبدو ان تاثير حضارة وادي الرافدين كان لها تأثير قليل جداً في نشوء حضارات المايا والازنك والانكا في العالم الجديد. فان المواد الآثارية تروي قصة تطور مستقل، يشمل مجموعة من الاختراعات والاكتشافات المختلفة عما في الشرق الادنى. فقد زرعت نباتات اطعمة مختلفة- الذرة والبقول والقرع والطماطة والبطاطة، كلها لم تكن معروفة في العالم القديم حتى زمن كولومبس، وصناعة المعادن والكتابة والرياضيات والتقاويم الزمنية، والفلك ومنجزات اخرى يبدو انها تطورت من تراث محلي وليس نقلاً من حضارات بعيدة لوادي الرافدين ومصر. حدثت الانجازات الرائعة للهنود الأميركيين (السكان الأصليين) بعد عدة الاف من السنين من نمو مشابه في الشرق الأدنى. في الحقيقة ان كثيراً من نمو حضارة أميركا الوسطى وبيرو (الانكا) حدثت خلال الألفي (٢٠٠٠) سنة الماضية. هذا موجز للتطورات الرئيسة في تاريخ الإنسان في ما يأتي:

الزمن تقريبياً	العالم القديم	العالم الجديد
الان		
		امبراطوريتا الازتك والانكا وحضارة المايا
ولادة المسيح		
	نشوء الحضارة الاغريقية	
		بدايات مدن المايا
٢٠٠٠ ق.م	اختراع الصناعات المعدنية والكتابة وأشياء أخرى جديدة وكثيرة	
٤٠٠٠ ق.م	المدن الاولى في بلاد الرافدين ابتكار زراعة الحبوب في الشرق الأدنى	ابتكار زراعة الذرة
١٠,٠٠٠ ق.م	فن الكهوف في غربي آسيا	وصول أول الناس إلى العالم الجديد (بطريق الاسكا)
	كثير من الأشياء الجديدة للالآت الحجرية	
١٠٠,٠٠٠ ق.م	إنسان نياندرتال وجدت فؤوس حجرية بصورة واسعة	
٥٠٠,٠٠٠ ق.م	انسان جاوة وانسان بكين	

	(وكثير من الالات الحجرية)	
مليون ق.م	آلات حجرية غير متقنة صنعها الإنسان في أوربا وأفريقيا	
١,٧ مليون ق.م	الإنسان القرد والإنسان المقتدر مـع آلات حجريـة في ممـر اولدفاي في شرقي أفريقيا.	



Man's Trek—as Read from the Anthropological Evidence.

أدلة أخرى على تاريخ الحضارة البشرية

كلما تقدمنا اكثر الى الازمنة الحديثة، تتعزز الادلة الآثارية والمستحجرات بمزيد ومزيد من انواع اخرى من المعلومات وتعزز قياسات ومراقبات السكان من البشر الاحياء النظرة الى ان معظم شعوب اوربا والشرق الادنى والهند يتصلون بعضهم ببعض بوصفهم سلالة فرع واحد- الاصل القوقازي- للانسان العاقل. الخلفية ما قبل التاريخية لمناطق اخرى يمكن ايضا توضيحها بفحص المعلومات من الانثروبولوجيا الطبيعية. فمثلاً، الهنود الامريكيون يتصلون اتصالاً بايولوجياً وثيقاً بالشعوب المنغولية في شمال شرقي اسيا، يضيف ذلك الى وزن الادلة التي تشكل الافتراض بان الاميركيتين جاء سكانها من اسيا من طريق مضيق بيرنك.

بينت الدراسات الاوربية ان معظم شعوب اوربا والهند يتكلمون لغات ذات صلة بعضها ببعض- كل لغات العائلة الهندو اوربية. وجعلت الدراسات المقارنة الدقيقة لهذه اللغات من الممكن اعادة تكوين اجزاء اللغة السلف الهندو اوربية. اعادة بناء المفردات هذه توفر ادلة على التداخلات في النظام الاقتصادي وبنية العائلة وعادات الطعام ومعالم اخرى في حضارة الهندو اوربين القدماء.

وبطبيعة الحال فان المعلومات اللغوية والبايولوجية تفحص فحصاً اعتيادياً بالاشتراك مع المعلومات الاثارية . التمحيص الدقيق للادلة اللغوية والآثارية والبايولوجية على تاريخ الحضارة مهم بصورة خاصة لتلك الاجزاء من العالم التي ليس فيها الا قليل من التاريخ المدون حتى الازمنة الحديثة. خرائط مجموعات لغوية مترابطة، وحدوث تعقيدات خاصة ذات سمات ثقافية، مع ادلة

آثارية، ساعدت في اعادة بناء بعض حدود ما قبل التاريخ للافريقيا والاميركيتين واجزاء اخرى من العالم. ان الادلة من اللغة والثقافة هي مصادر رئيسة للمعلومات عن الهجرات التي تكاد لاتصدق للپولينسيين والشعوب ذات العلاقة بها الى جزر البحار الجنوبية. الشعوب التي تتكلم لغات الملايو- البولينسية وتقاليد ذات صلة وجدت على طول الخط من مدغشقر، بعيداً عن الساحل الشرقي لإفريقيا، الى جزيرة اليستر التي تعود الى شيلي)- مسافة تزيد عن ١٣,٠٠٠ ميل او كثر من نصف المسافة حول الكرة الأرضية! لم يكن لدى هذه الشعوب غير زوارقهم الشراعية الصغيرة لقطع تلك المسافات الشاسعة من المحيط.

المعلومات عن السلوك البشري

المقادير الهائلة من المعلومات التي جمعها الانثروبولوجيون عن شعوب العالم تتجه دائماً اتجاهين. فاذا نظرنا الى الوراء فاننا نهتم طبيعياً في تتبع التاريخ الحضاري والبيولوجي كما لخصناه آنفاً. ولكن المعلومات نفسها هي المادة الخام التي نسعى منها الى توليف تعميمات عن سلوك البشر، اننا نريد أن نفهم سلوك الانسان الحديث في جميع أشكاله، اكثر من مجرد معرفة بعض الحقائق السلبية عن الماضي.

والآن، اذا كان العالم البيولوجي يبحث عن تعميمات في سلوك الطيور فليس من المحتمل ان يعتمد على معلومات محدودة لاوصاف سلوك طيور اميركا الشمالية. ومثل ذلك، لايحاول أي أوقيانوغرافي (عالم بالمحيطات) حصيف دراسة خصائص المحيطات باستعمال معلومات عن المحيط الاطلسي فقط. يبحث هؤلاء العلماء

عن اكثر اشكال المعرفة الممكنة من جميع انحاء كرتنا الارضية لدى متابعة ودراسة موضوعهم الاثير. فيبدو لذلك غريباً لدى الانثروبولوجيين ان يوجد كثير من الدراسات والكتب المدونة عن الطبيعة البشرية والدين والقانون والفن ومعالم اخرى عن الانسان باستعمال معلومات من جماعة فرعية صغيرة من البشر - مثل الاميركيين والاوربيين.

يظهر ان ميل كثير من الباحثين للتعميم بشأن طرق الانسان من عينات ضيقة لادلة متيسرة يعزى الى عاملين رئيسين:

الاول: معلومات عن المعتقدات والمؤسسات وانماط الزواج والانظمة الاقتصادية والشخصيات المتنوعة كثيراً من غير الشعوب الاوربية لم تكن متيسرة لكل انسان. وحتى قبل مئة عام لم يكن ثمة مقدار كبير من المعلومات الاثنوغرافية التي جمعت جمعاً نظامياً.

الثاني: ولعله سبب اهم، هو ان جميع الناس في كل مكان يميلون الى رؤية طريقتهم الخاصة في الحياة بانها أكثرها اعتدالاً وطبيعية - مثالاً يقتدى به في السلوك البشري في افضل أحواله.

فليس من المدهش اذن ان حتى اعمق الفلاسفة فكراً في الشرق والغرب اشتقوا نظرياتهم عن الطبيعة البشرية من دراسة ابناء بلادهم وابناء الشعوب المجاورة لهم، معتبرين تقاليد الشعوب الابعد بانها همجية، غير مالوفة، بربرية، غير منطقية، غير طبيعية او حتى ادنى من البشرية.

ولكن حتى في القرنين السابع عشر والثامن عشر بدأ بعض الفلاسفة الاوربيين استعمال معلومات عن الهنود الحمر وشعب البحار الجنوبية ادلة على نظرياتهم. ان استعمال جان جاك روسو

لمواد اثنوغرافية لمفهوم عن "الهمجي النبيل" مثال على هذا الميل. ان المعلومات الاثنوغرافية المتاحة لهؤلاء الناس كانت، بطبيعة الحال، هزيلة وغير دقيقة بما انها جمعها بطريقة غير منظمة، مختلف الرحالة والمغامرين والبعثات التبشيرية وآخرين، لتكون الى جانب نشاطاتهم الرئيسية واهتماماتهم. وقلما استطاع الفلاسفة استخلاص نتائج مفيدة عن طبيعة البشر حين كانت مصادرهم الاثنوغرافية تروي عن عمالقة ذوي عين واحدة، وقبائل أفواههم في وسط بطونهم، وأناس، بلا لغة ولا دين وامور خيالية اخرى.

في القرن العشرين فقط تحسن مستوى المعلومات الاثنوغرافية كثيراً جداً بحيث اسقط كثير من الغرائب العجيبة من المعتقد العام، واصبح شيء يقترب من الوصف الدقيق لطرائق الحياة البشرية متاحاً من مناطق فرعية جغرافياً في العالم. ويوجد حتى اليوم فجوات عظيمة في تيسر انواع خاصة من المعلومات. نضرب مثلاً واحداً، منذ عام ١٩٤٥ قام انثروبولوجيون بمحاولات مهمة لجمع معلومات نظامية عن ممارسات تربية الأطفال.

وقد حدث تطور واسع الانتشار في الاعتراف بين غير الانثروبولوجيين ذوي الاهمية بالمواد الثقافية الاجنبية من اجل اطلاق احكام عامة بشأن السلوك البشري في العقود القليلة الماضية. يكاد كل من يكتب اليوم عن موضوعات كالأنظمة الدينية او العائلة البشرية، او تطور الشخصية او الطرق القانونية، يشعر انه مضطر الى اخذ ملاحظات في الاقل من بعض الخزين الغني بمعلومات ذات صلة من مجتمعات غير غربية.

تطورات واعدة في النظرية الانثروبولوجية

بلغ الان تراكم المعلومات الوصفية عن السلوك البشري، في الماضي والحاضر، نسباً تجعل من الممكن احراز تقدم مهم في النظرية الانثروبولوجية. فقد كان احد اهم الموضوعات الدائمة في النظرية الانثروبولوجية الاثيرة مسألة التطور الحضاري- البحث عن مراحل عامة او أنماط منتظمة في تاريخ الحضارة الإنسانية. بعد ان ضعفت الثقة بنسخة التطور الحضاري في القرن التاسع عشر، تجنب معظم الانثروبولوجيين- كنوع من التحريم الخارق للطبيعة- أي تمحيص حضاري. وفي الازمنة الاحدث، جرت محاولات مهمة لبناء نظريات جديدة على اسس افضل.

وقد دفع جوليان ستيوارد الى الامام نظرية دعاها "تطور متعدد الخطوط". وبدلاً من الادعاء بان طرائق الحياة في كل مكان تتقدم بسلسلة متعاقبة من التقدم من "الهمجية" الى "الحضارة" فان ستيوارد بحث عن مواقف اكثر تحديداً. ونظر ستيوارد وجماعة آخرون من الانثروبولوجيين في نشوء الحضارة في بلاد الرافدين ومصر والصين وبيرو وأواسط أمريكا فلاحظ إن عمليات مشابهة تماماً في النمو الحضاري حدثت في هذه الأماكن المتباعدة بصورة واسعة. وقد اتسمت "الحقبة التكوينية" في كل من هذه المناطق بتطور في التعدين ونمو السكان وتوسع في الحضارة السائدة وبناء منشآت واسعة وظهور منظمة "دولة" متعددة المجتمعات.

نظريات ستيوارد تبين ان تطور مجتمعات معقدة في أنواع اخرى من الظروف الطبيعية (مثلاً اوربا الشمالية)، تتوقع ان تتخذ

أنماطاً مختلفة من الأنماط التي وضعت تواً. هذا الإطـار النظـري يزعم ان العمليات الثقافية يجب ان تدرس بوصـفها تفـاعلاً بـين الظروف والمنظمة الاجتماعية والاختراعات التكنولوجية والأنمـاط الفكرية- مؤثر ومتأثر بعضها ببعض حين يتكيف الناس الى ظروف معينة ويحاولون تحسين أحوالهم المعاشية.

كثير من التقارير الانثروبولوجية عن شعوب خاصة قـدمت من مجرد قوائم من تقاليد غريبة "مختلفة وجدت في مجتمع خـاص مع قليل من المفاهيم عن كيفية اتصال هذه التقاليد بعضها ببعض او كيف نظم المجتمع الذي يمارسها.

يستند ظهور نظرية انثروبولوجية الى فرضية عامة بـان السلوك والتقاليد المختلفة ضمن مجتمع معـين مترابطـة وظيفيـاً، وفضلاً عن ذلك، يدعى الانثروبولوجيون ان أي مجتمع من النـاس يمكن ان يوصف بأنه منظم في نظام اجتماعي يؤدي فيـه الأفـراد والجماعات "أدواراً" متنوعة في مسرحية المعيشة. هذه الادعـاءات الأساسية يمكن استخدامها في دراسة أي جانب من المنظمة الثقافية او الاجتماعية.

يبين البحث الانثروبولوجي ان العائلة الزنجية- مـن رجـل وزوجة واطفال- هي وحدة أساسية في جميع المجتمعات البشـرية تقريباً. وفضلاً عن الوحدة المركزية فان المجتمعات تختلف اختلافـاً واسعاً في الطرق والمدى الذي تنظم فيه علاقات القرابة المبادئ من اجل وحدات اجتماعية اوسع. ان بعض القبائل الواسعة جداً (ولاسيما في افريقيا)، منظمة تنظيماً سياسياً واجتماعياً في مجموعات قرابـة ابوية (عضوية الجماعة تعتبر من الذكور فقط). قبائل اخـرى مـن

الحجم نفسه لها ملوك وإدارات سياسية تستند الى علاقات ليست من الأقرباء. كثير من المجتمعات التي تمارس زراعة المحاصيل بالمعزقة، كما في اميركا الجنوبية وافريقيا واماكن اخر، لها جماعات قرابة امومية (عضوية الجماعة تعتبر من الاناث). مرة اخرى، كثير من شعوب العالم يعدّون الأقرباء الأبويين والامويين ذوي اهمية متساوية في تكوين جماعات واتحادات اجتماعية.

في قاعدة عامة، يمكن ان يقال ان تطور المجتمعات الاقتصادية المعقدة ادى الى زيادة تنوع التجمعات الاجتماعية غير القرابية (النوادي والجمعيات والاتحادات والشركات الخ...). غير ان كثيراً من المجتمعات البدائية لها ايضاً "نوادٍ" ونقابات حرفية وجميعات دينية، وتجمعات اخرى ليست ذات قرابة، وما تزال علاقات العائلة والقرابة تزود الاسس لعناصر مهمة من السلوك البشري في مجتمعات حديثة معقدة.

وقد دخل كثير من البحث الانثروبولوجي حديثاً في دراسة المعتقدات بالسحر والشعوذة. ممثلون مثقفون بطريقتنا الخاصة في الحياة يعدون عموماً عناصر هذه "الخرافات" ادلة واضحة على التخلف واللاعقلانية. ان البعثات التبشيرية والوكلاء الحكوميين وآخرين يقومون بحملات ضد المعتقدات السحرية وممارسات الشعوذة لدى السكان الاصليين في استراليا، والأفارقة والهنود الأميركيين، غالباً ما تكون غير ناجحة كثيراً. وان اولئك الذي يسعون الى دمغ مثل هذه الممارسات اعتبروا اعتباراً ساذجاً هذه الافكار بقايا معتقدات وثنية. من آثار الماضي.

كما لاحظنا في الفصل الثاني، كان برونسيلاف مالينوفسكي اول من بيّن بوضوح وقدم ادلة على العلاقة بين الممارسات السحرية ومجالات الحياة التي في موضع الريبة. تلك المواقف المرعبة في الصيد او الحرب او الابحار في المحيطات، والاكتشافات الاخرى حيث تكون قدرات الانسان التقنية غير كافية للتأثير في الامور التي يتعذر السيطرة عليها كالمناخ والحيوانات الوحشية والبحار العاصفة والاعداء الخطرين- تلك هي انواع المواقف التي يتوجه فيها الانسان الى افكار متخيلة لتلبية الرغبات في شكل ممارسات سحرية. رأي مالينوفسكي ذلك استجابة للقلق الذي يقصف به جميع البشر طبيعياً، ويشمل كل بحّار تروبرياند في البحار الهائجة والاميركي الحديث الذي يركب مخاطر غير معتادة في مصاعبها. لايميل كل انسان الى الممارسات السحرية بالدرجة نفسها، غير ان امثلة مجتمعنا الحديث تؤيد نظرية مالينوفسكي. في المجالات التي تكون فيها قدراتنا وتكنولوجيتنا في وضع مريب- الصراعات ضد امراض عضال، لا شفاء منها، واخطار الحروب، وحتى في عدم التأكد من نتائج العاب الكرة الصعبة المراس- فاننا نحن "الحديثين" اسهل في ما نبدي الاهتمام في اقدام الارانب، وطلاسم الخط السعيد من جميع الانواع، وادوية الدجل الغامضة، والتجنب السحري لكلمات معينة وعشرات من الطقوس الاخرى الصغيرة. وحتى التحول إلى أديان أخرى والتجارب الوهمية يبدو أنها ذات علاقة بالقلق الشديد. من المفيد جداً أعداد مواد عن الممارسات السحرية التي يستخدمها طلبة الكليات في أيام الامتحانات- اشد المواقف قلقاً في العالم الأكاديمي!

في دراسة ممتازة عن مجتمعين في غربي إفريقيا، اظهر س.ف نيدل ان الاتهامات الموجهة للسحر والشعوذة تميل إلى أن تكون موجهة الى أناس في مجتمع اشد ما يكونون إزعاجاً في سلوكهم نتيجة للقلق فمثلاً، نجد كثيراً من التوتر بين الرجال وزوجاتهم بين شعب (نيوب) في نيجيريا. النساء اللواتي يمتلكن في اغلب الاحيان ثروة اكثر من الرجال ينشغلن كثيراً بعمليات تجارة وتسوق بعيداً عن عوائلهن ويعبرن عن استقلالهن في عدد من الطرق الاخرى التي تعارض القيم المتعارف عليها في (نيوب) للنساء العفيفات والمطيعات. يبين التحليل ان الازدواجية تجاه النساء انها في الاقل جزءاً من تفسير الحقيقة بان الأناث متهمات في اغلب الاحيان بالسحر والشعوذة اكثر من الذكور. وفضلاً عن ذلك فان الاتهام بالسحر قد يؤدي الى جعل الاناث تحت سيطرة الذكور المتزعزعين، غير الواثقين، لان السحر جريمة خطيرة وتتخذ اجراءات لمعاقبة الخاطئات المزعومات.

درس گاي سوانسن عينة من خمسين مجتمعاً في ما يخص فرضية ان السحر يميل الى ان يكون متفشياً حين يتحتم على الناس حين يتفاعل بعضهم مع بعض على قضايا مهمة في غياب الضوابط والترتيبات الاجتماعية الشرعية، قسم مجتمعاته الخمسين الى الذين يمتلكون الضوابط الاجتماعية الشرعية المهمة في معظم العلاقات، واولئك الذين يفتقرون الى مثل هذه الضوابط، ووجد تفشياً اعلى للمعتقدات بالسحر في الجماعة الثانية. ان اهمية النتائج المستخلصة بشأن السحر والشعوذة تزداد زيادة عظيمة حين نلاحظ ان ظواهر مشابهة تحدث في مجتمعنا الحديث،، غير ان الافكار "السحرية" هنا

تترجم في الغالب الى معتقدات ملتوية عن الشيوعية والخوف من التسمم، والتعرض الى ان يكون المرء كبش فداء لجماعات ثانوية، تشويهات غريبة عما "يجري في جامعاتنا" ومفاهيم كثيرة محيرة. ويبدو من ادلة انثروبولوجية ثقافية اجنبية وكذلك دراسات سايكولوجية، ان الناس الذين يمرون بتجربة الخوف والاحباطات في حياتهم اليومية كثيراً ماتنمو لديهم معتقدات "سحرية" بشأن مصادر مشكلاتهم، ثم يلقون اللوم على "السحرة" الذين قد يكونون في مجتمعنا اقليات عرقية او دينية، والحكومة، والسياسيين، و"الشيوعيين ومتطرفين آخرين"، و"أولئك الموحدين- المؤمنين بإله واحد- في الجامعة" او جامعات أخرى مماثلة. كما بينا تواً، كثير من هذه الدراسات التي تظهر ادلة قوية على العلاقات المتبادلة بين السلوك البشري والمعتقدات المختلفة قد حدثت نتيجة تطبيق مبادئ سايكولوجية لتحليل السلوك المألوف.

ان دراسة وايتنك وشريكه التي درسناها في الفصل الثالث عن ممارسة تدريب الاطفال، مثال آخر على الميل في الدراسات الانثروبولوجية. وان التداخل بين الافكار الانثروبولوجية والسايكولوجية طريق ذو ممرين كما صور بكثرة في التقدم الحديث في دراسات الصحة العقلية.

قدم انثروبولوجيون كثيراً من الادلة مبينين ان:

أ. المرض العقلي يتخذ اشكالاً مختلفة في مجتمعات مختلفة.

ب. المجتمعات المختلفة لديها طرق مختلفة في تعريف ما هو السلوك غير السوي.

ج. الشعوب المختلفة فيها نسب مختلفة للاضطراب العقلي.

بعض المجتمعات في افريقيا، مثلا، فيها نسب واطئة جداً من الانتحار ولكن فيها نوبات جنون بين الافراد. من الناحية الاخرى، مجتمعات اوربية معينة تظهر فيها نسب عالية جداً من الانتحار والكآبة، مع ظهور اقل من النوبات الجنونية. كثير من الشعوب تعد الامر اعتيادياً ان يمر الافراد بتجربة من الهلوسة (الهذيان) والرؤى (التخيلات) والغشيات و(الاغماء). بين شعوب (بالي)، مثلا، تتضمن، الطقوس الرئيسة سلوك غشيات، جزءاً منتظماً من الشعيرة، الشامان (رجل الطب) في كثير من الجماعات الهندية الاميركية وفي سيبريا واجزاء اخرى من العالم يؤدي فعاليات تتضمن حالات من الهذيان والهلوسات والاغماء. هذا السلوك بين اعضاء مجتمعنا الاعتياديين قد يؤدي الى تشخيص عدم استقرار عقلي، ولكن بعض المذاهب الدينية الصغيرة في المجتمع الاميركي قد يصابون على نحو منتظم بـ "مس" (من الجنون) ويمرون بتجربة غشيات" في جزء من طقوسهم الدينية. حقيقة ان سلوكاً يعد "غير سوي" في احد المجتمعات، يعد "سوياً" في مجتمع آخر، يثير مشكلات مهمة في المفاهيم البشرية العامة عن الصحة العقلية والاضطراب العقلي. في هذا النوع من المشكلات في نظرية الطب العقلي والسايكولوجي عدلت النتائج بحوث الانثروبولوجيين. وعلى الرغم من المصاعب في تعريف ما هي الشخصية غير السوية او المعتلة، فان معظم المراقبين على اتفاق الان بان "جميع" المجتمعات فيها بعض الافراد الذين يمكن ان يشخصوا بوضوح بانهم مرضى عقليون، وهم يصنفهم الناس المحليون انفسهم بانهم مرضى عقليون. يواصل

الكزاندر ودوروثيا ليتن، ومشاركوهم مشروع بحث شامل في نوفا سكو شيا (في كندا) في ما يخص العلاقة بين نسب المرض العقلي وانماط المجتمعات. يدل بحثهم على ان المجتمعات التي يظهر فيها "اختلال نظام اجتماعي" اعظم نسبياً يكون فيها اعداد اكبر من الافراد المضطربين عقلياً في السكان المحليين. وهنا، مرة اخرى، كدّس البحث الانثروبولوجي ادلة على العلاقات المتبادلة في منظمة المجتمع، ومزايا الشخصية، والسلوك المحلي المألوف، والمعتقدات الدينية. وعناصر اخرى في طرائق حياة الشعوب. كثير من مشاريع البحث في الصحة العقلية الواسعة النطاق في السنوات الحديثة تضمنت تعاوناً حميماً بين الانثروبولوجيين وعلماء النفس واطباء الامراض النفسية وعلماء الاجتماع.

خلاصة

الانثروبولوجيا حديثة نوعاً ما بين الدراسات الاكاديمية الراسخة ولايمكنها ان تدعي بتقديم قوانين شاملة ودقيقة او احكام عامة عن السلوك الانساني المشابهة لقوانين ومبادئ الكيمياء، او الفلك او الفيزياء، مثلاً. كثير من الدراسة الانثروبولوجية خلال المئة عام او حوالي ذلك كانت مكرسة لعمل شاق، مهم لتجميع معلومات- المادة الخام عن التقاليد والخصائص البشرية التي يمكن منها انشاء نظام نظري ناضج.

ان انجازات الانثروبولوجيا في جميع المواد الوصفية جديرة بالاعتبار.

اوضح شيء للعالم المثقف الحديث هو المقدار العظيم من المعلومات التي لدينا الآن لاعادة بناء "ماحدث في التاريخ"- المخططات

التمهيدية الرئيسة للتطور التكنولوجي والحضاري البشري من بدايات بسيطة قبل اكثر من مليون سنة. ان مواد المستحجرات البشرية والمعلومات الآثارية تزودنا بالمعلومات لهذا الجانب من الاهتمام الانثروبولوجي.

ان المجموعات الاثنوغرافية من التنوع العظيم في السلوك والتقاليد البشرية في ارجاء العالم تمثل انجازاً فذاً آخر في الطور الوصفي الاول لدراسة الانثروبولوجيا. ان أي احكام عامة عن الانظمة الاقتصادية والمعتقدات الدينية و"الطبيعة البشرية"، الخ... يمكن الآن ان تبنى على اساس من المعلومات الاثنوغرافية الواسعة المدى عن مئات المجتمعات المختلفة. بدأت الان التطورات النظرية في الانثروبولوجيا بالظهور، متطورة من الاثنوغرافيات الوصفية المتراكمة. وتطورت التحسينات في بحث التطور الحضاري، واخذت تظهر بنية نظرية لفهم التنظيم الوظيفي لانظمة السلوك البشري من دراسة العلاقات المتبادلة بين انظمة المعتقدات وعناصر التنظيم الاجتماعي والترتيبات الاقتصادية. كثير من الاسهامات المهمة في هذا النظام النظري النامي يعتمد على تطبيق المفاهيم السايكولوجية والافكار النظرية الاخرى المستعارة من علوم اجتماعية لها صلة بالموضوع.

الفصل الخامس
نظرات اساسية ثاقبة من البحث الانثروبولوجي

قبل مئات الالآف من السنين طور مخلوق من نوع "الانسان القرد" ابداعات في خصائص بدنية جعلت من الممكن وجود نظام كلام معقد، ومعالجة رمزية بارعة للافكار وزيادة خزين المعلومات في الدماغ. وهكذا ظهر الانسان للوجود. وخلال عملية تطور تدريجية جداً اصبح الانسان يختلف بنحو متزايد عن القرود وبدأ يشكل طرائق حياته بتقاليد اجتماعية، وسلوك متعلم وتفاعل رمزي معقد.

مفهوم الحضارة

"الحضارة" كلمة نستعملها لتبين "شيئاً اضفناه"، يعلل الظروف الواسعة في سلوك يميز الانسان عن جميع الحيوانات الاخرى. الحضارة تعني في الغالب "التراث الاجتماعي" لمجموعة من الناس. وليس التراث الاجتماعي "شيئاً" ينقل سليماً مثل صندوق الرجاء، الذي تجمع فيه الفتاة بعض الملابس والادوات لتستفيد منها عند زواجها، من جيل الى جيل، انما هو خلاصة معقدة يمكننا تكوينها اذا كنا قادرين على تجميع الافكار وانماط المعنى، و"قواعد" لسلوك جميع الافراد في مجتمع معين. كل جيل جديد يعدل ويغير انظمة الافكار والمعاني والقواعد بحيث لايبقى التراث الاجتماعي ثابتاً ابداً غير متغير في أي مجتمع. ويتفق معظم الانثروبولوجيين على ان الاقرار بان الطبيعة واهمية الحضارة هو اهم نظرة ثاقبة وسمت تطور دراسة الانسان.

لدى دراستنا ومقارنتنا الحضارات البدائية والمتمدنة، وجدنا عملياً ان جميع الظروف المهمة في طرائق حياة الاميركيين والصينيين والاستراليين الاصليين والاسكيمو واقزام الكونغو وشعوب اخرى يمكن فهمهما على انها فروق في الانماط المتعلمة للسلوك الاجتماعي، وليست فروقاً في الجهاز البايولوجي، او صنف الدماغ او صنف الدم او أي تقنيات متوارثة جينياً. فلا حاجة اذن الى العجب بشأن فكرة "ابناء آكلي لحوم البشر، يذهبون الى اكسفورد" كما ذكر ذلك احد الكتاب حديثاً.

اصبح مفهوم الحضارة مقبولاً بطيعة الحال بين المثقفين اليوم حين صار من الصعوبة ملاحظة ان قبل خمسين او ستين سنة فقط ما زال بعض الباحثين يعتقدون بفكرة الوقوف في سلوك الاوربيين تمثل خصائص مختلفة متوارثة بايولوجيا "للعرق الالماني" و "العرق الانكليزي" و "العرق الفرنسي" وهلم جرا. لقد بينت دراسات حديثة وتاريخ حديث ان افراداً من حضارات بدائية، حتى من "العصر الحجري" اصبحوا "متغربين" "بالحضارة الغربية" وتكيفوا مع الحضارة الحديثة في مدة قصيرة من الزمن لاتصدق، ونحن نعرف ان حضارتنا الغربية تعاني تغيراً سريعاً. كل هذه التطورات تلقي ضوءاً على طبيعة السلوك الحضاري البشري القابل للتكيف.

مسلمات الانثروبولوجيا

وصل فهمنا تاريخ العلم العام نقطة نعرف جيداً ان المبـــادئ الاساسية المقبولة اليوم ستكون غداً افكاراً غريبة مغلوطة في اغلب الاحيان من جانب البحث العلمي غير الناضج، لذلك فان المســـلمات المدرجة في ادناه يجب النظر اليها نظرة نقدية، مع استعداد لنبذ أي منها او جميعها حين تتجاوز فوائدها. تبدو هذه الافكار في الوقـــت الحاضر ادلة كثيرة متيسرة، ويبدو انها توجه في مســـاعدة البحـــث والدراسة في الانثروبولوجيا والموضوعات ذات الصلة.

١. الحضارة طريقة حياة متكاملة، وليست مجموعة تقاليـــد مصـــطنعة. انها تشكل الطريقة التي يشعر بها الانسان ويتصرف ويـــدرك وهـــو يتكيف الى عالمه.

كان بعض الباحثين الاوائـــل يـــرون ان "تقاليـــد" الشـــعوب المختلفة مجرد مجموعة عشوائية من معتقدات غريبة وممارســـات غير مألوفة، هي نوع من الغشاء او الطلاء الملـــون علـــى الوجـــه الخارجي "للانسان الطبيعي". اننا ندرك الآن ان بين الشعوب البدائية المتمدنة على السواء ان تراثنا الاجتماعي يؤثر تـــأثيراً قويـــاً فـــي طريقة ادراكنا وتصنيفنا جميع التجارب. حتى عملنـــا البـــايولوجي يتشكل كثيراً بالحضارة. فنحن نجوع في اوقات معينة من اليوم (في حضارات اخرى يحدث ذلـــك فـــي اوقـــات مختلفـــة) لان معرفتنـــا الحضارية دربت عملياتنا الفسلجية لتستجيب فـــي "اوقـــات طعـــام" منتظمة. وان ادراكنا الاصوات والالوان والظواهر "الطبيعية" الاخرى مشروطة بالتجربة الاجتماعية. كثير من شعوب العالم (على ســـبيل المثال، ناڤاهو الجنوب الغربي الاميركي) يميـــزون بـــين الاخضـــر

والازرق في لغتهم، لان بيئاتهم تجعل التمييز بينها لا اهمية له. ومن الناحية الاخرى يجمع الامريكيون من غير تمييز تحت كلمة "ثلج" نصف كل شيء من ثلج ذائب الى "مسحوق جاف" في مدى ظروف تنقل يجب تمييزها بدقة بكلمات منفصلة بين الاسكيمو الذين تتأثر حياتهم كثيراً بظروف في انواع الثلج.

لعل ما هو مذهل اكثر من ذلك هو ان ملاحظاتنا المتنامية ان المرض يعرّف حضارياً وفي كثير من الحالات يتأثر بقوة بالانماط الحضارية. فالعلل الجسدية الناتجة عن اضطرابات عقلية من جميع الانواع توضح لنا العلاقة الشديدة المتبادلة بين الافكار والمعتقدات والعمليات الجسدية. وقد كشف البحث عن الصحة النفسية فروقاً حضارية كبيرة داخل المجتمع الاميركي في تفسير حالات نفسية. في قطاعات مختلفة من سكان اميركا النمط نفسه او نفسه تقريباً تفسر الخصائص بعبارات مثل "هو مصاب بالعُصاب النفسي" و" انه يتصرف تصرفاً متناقضاً" و "الشيطان يغويه" و"انه شرير" وتعبيرات مختلفة اخرى كثيرة.

الحضارة يمكن ان تقتل- وما اشد الاختلاف في المواقف في مجتمعات مختلفة التي يمكن ان تدفع الشخص للانتحار. في بعض المجتمعات العاشق الذي تهجره حبيبته هو المرشح المحتمل للانتحار، وفي مجتمعات اخرى المرشح هو متلقي الانتقاد من ابيه. وفي مجتمعات اخرى الانتحار نادر جداً حتى ان الدوافع المحتملة لمثل هذا العمل لايفهمها الناس. الحالات الموثوق بها من "موت الفودو" (أي الموت بالسحر الاسود) في انحاء مختلفة من العالم تقدم لنا مثالاً مذهلاً آخر عن قوة المعتقد الحضاري.

يبدو ان ضحية السحر الاسود يمر بتجربة صدمة فسلجية نفسية عميقة حتى يعلم ان ساحراً "هاجمه. فيفقد شهيته للطعام والماء، وينخفض ضغط دمه، وتتسرب بلازما الدم الى الانسجة، ويتدهور قلبه. ويموت من صدمة تشبه الصدمة الفسيولوجية "صدمة الجرح" في حرب او اصابة على طريق خارجي.

٢- كل نظام حضاري هو سلسلة مترابطة من الافكار والانماط لسلوك تؤدي في احد جوانبها التغيرات عموماً الى تغيرات في اجزاء اخرى من النظام.

لدينا الان ادلة كثيرة ان في كل مجتمع تعزى الوسائل والاعمال في كسب العيش الى تنظيم اجتماعي في المجتمع. فمثلاً، التي فيها اعتماد كبير على تربية الحيوانات تميل الى تاكيد هيمنة الذكور، كما يعبر عن ذلك توريث الممتلكات بواسطة الذكور، واختيار متعدد الاماكن للسكن عند الزواج. مرة اخرى تبين الادلة الاثنوغرافية ان مجتمعات الصيد وجمع القوت تميل الى تساهل اكثر في ممارسات تربية الاطفال من الشعوب الزراعية والرعوية. وقد اشرنا في الفصل السابق كيف ان مناطق الاعتقاد الديني والسحري تبدو مرتبطة بجوانب اخرى من التنظيم الاجتماعي.

ان دراسات التغيرات التي ادخلت في مجتمعات بدائية كشفت ان من المستحيل عملياً تقديم حتى ابسط الابتكارات التقنية من غير التأثير في المجالات الاخرى للحضارة ايضاً. ان دراسة ادخال البعثات البشرية والتجار فؤوساً فولاذية في مجتمع استرالي يستعمل فؤوساً حجرية اظهر ان تغيرات اجتماعية بعيدة المدى حدثت من هذا التغير التكنولوجي البسيط. كانت الفؤوس الحجرية في الحضارة

التقليدية رموزاً مهمة جداً لاوضاع نادرة، يملكها ويسيطر عليها رجال مسنون ذوو هيبة وسلطة عالية. قلبت الفؤوس الفولاذية الجديدة نظام السلطة بكامله بوضع سلع ذات كفاءة ومنزلة عالية في ايدي نساء وشباب من الرجال كانوا قبل ذلك يشغلون مناصب ذليلة خاضعة لغيرهم في المجتمع.

حتى الالعاب وتمضية اوقات الفراغ التي يزعم اغلب الاحيان انها تافهة وجوانب ثانوية من جوانب السلوك، ترتبط ظاهرياً "بانماط من الانظمة الاجتماعية.

البحث الحديث يدل على ان أياً من المجتمعات الابسط تكويناً لم يطور عملياً العاباً ذات استراتيجية بارعة. ويبدو ان المجتمعات يجب ان يكون لها حد ادنى معين من التعقيد الاجتماعي الهرمي من التسلسل قبل ان تصبح مشكلات استراتيجية فاتنة وممتعة للافراد. يبدو ان الناس البسطاء الصيادين وجامعي القوت ينجذبون اكثر الى العاب تفيد من البراعة البدنية.

٣- كل نظام حضري بشري، منطقي ومتماسك في علاقاته المتبادلة، اذا تيسرت له الافتراضات والمعرفة المتاحة لمجتمع معين.

هذا عموماً تكرار وتلخيص بعض النقاط التي ذكرناها قبل قليل، غير انها تستحق الاعادة لتقرير صحة افكار سابقة تنسب الى شعوب غير اوربية اخفاق "غير منطقي" او طفولي لاستخلاص نتائج مناسبة من التجارب.

لم يكن العاملون في الميدان الانثروبولوجي قادرين على ايجاد أي شعب في عالمنا انظمة تفكيرهم او تعلمهم من التجارب

يمكن ان يطلق عليها "غير منطقية". الفـروق فـي التفكيـر بـين "الإنسان البدائي" و"الانسان الحديث" يبدو انها تكمن في افتراضاتهم الأساسية عن العالم والاشياء التي فيه، المشـروطة بـالفروق فـي المعلومات المتيسرة. الإنسان الحديث يعرف ان الارض تدور حـول الشمس وليس العكس، لان الرصد والحساب العقدة التي مكنت قلـة قليلة جداً من الناس في المدنية الغربيـة لاشـتقاق نظريـة قابلـة للتصديق تخص النظام الشمسي. معظم الشعوب البدائية في وضـع يعتمد على اعينهم فقط، وعلى وفقه يكون من المعقـول تمامـاً ان يعدوا الشمس شيئاً متحركاً، يدور حول الارض الثابتة، المنبسطة.

تفسير الامراض مجال اخر اعتيادي تفـوق فيـه الانسـان الحديث بعض التفوق على المفكرين غير الاوربيين. لم يـرَ انسـان بدائي أي جرثومة. ليس لدى الانسان أي دليل "موضـوعي" علـى وجود كائنات طبيعية (جراثيم) لها علاقة سـببية بـالمرض، لـذلك اعتمد عموماً على افتراضه الأساس من الكون: ان العـالم مملـوء بارواح وقوى خارقة غالباً ما تسبب المشاكل، وبضمنها المرض. اذا وهب الانسان هذه "الفرضية الاولية، فان المرض يجـب ان يعـالج بالتضرع الى المخلوقات الخارقة المؤذية او استرضائها او التزلـف اليها او اخراجها. لذا فان الممارسات الطبية البدائية تكون مفهومة منطقياً، اذا سلمت بالمقدمات الافتراضية الاساسية. وبما ان النـاس يشفون من المرض بصرف النظر عن طريقة معالجتهم، فان للناس البدائيين عموماً "دليلاً موضوعياً" شـاهداً علـى تـأثير طـريقتهم الشفائية.

اما في ما يتعلق بالمرض العقلي فان الطب البدائي اكثر تشويقاً. الطبيب البدائي غير الغربي في ذلك المجال نال ظاهرياً نجاحاً معتبراً، وان المفاهيم غير الغربية عن العلاج النفسي سبقت النظرية الحديثة في الطب النفسي.

هنود الاروكوي (الاميركيين) مثلاً، كان لهم في الازمنة القديمة احتفال شتوي يسمح فيه لاشخاص مصابين بهواجس مقلقة ومشكلات نفسية اخرى ان يمثلوا دوافعهم التي لاتقاوم بعد ان يفسر لهم هواجسهم "محلل نفساني" في القبيلة. ومن باب التنوير يذكر ان الطبيب البدائي يبدو انه كان، وما يزال في بعض المناطق، يمتلك تأثيراً علاجياً للامراض العقلية يشابه الطب العقلي الحديث. هذا التاثير العلاجي ليس بطبيعة الحال، برهاناً على صحة نظريتي أي من الجماعتين.

وفي ما يخص المنطق لدى "الرجل المتمدن" مقابل منطق "البدائي" اقتبس ليوپولد پوسپيل كلام احد ابناء پابو في غينية الجديدة في مجتمع من "العصر الحجري" ما يزال عموماً غير متأثر بالحضارة الغربية في عمل ليوپولد الميداني سنة ١٩٥٥:

مواطن پاپوا سأل ليوپولد: كيف تعقل ان إنساناً يستطيع ان يقترف إثماً ويستطيع ان يمتلك حرية الارادة وفي الوقت نفسه يعتقد ان إلهك كلي القدرة وانه خلق العالم وقدّر كل الحوادث؟ فلو كان قدر كل ما يحدث، وكذلك الأفعال الشريرة، فكيف يمكن ان يكون الإنسان مسؤولاً؟ واذا كان الخالق كلي القدرة، فلماذا يجب عليه ان يحول نفسه الى إنسان ويسمح لنفسه ان يقتل (يصلب) حين يكون كافياً عليه ان يأمر الناس ان يتصرفوا؟"

وأضاف الرجل ان الفكرة المسيحية عن إنسان يشبه الله في مظهره تبدو له "غبية" للغاية.

يميل أعضاء المجتمع الغربي ان يعدّوا "العقلانية" مصلحة ذاتية اقتصادية. وقد وضع احد فروع التفكير الغربي، الاقتصاد، فرضية "إنسان اقتصادي "أساساً لتحليل عمليات اجتماعية مهمة، واعتقد كثير من المنظرين ان ".الإنسان الاقتصادي" نموذج للحكم على العقلانية البشرية.

يبدو إن فرضية "الإنسان الاقتصادي" تنجح في التنبؤ باتجاهات عظيمة في اقتصادنا الواسع النطاق، ولكنها لاتبدو واقعية تماماً لتكون مقياساً في تحليل كثير من المواقف في المجتمع الأميركي. فمثلاً على وفق الفرضيات بشأن الإنسان العقلاني، يترك الناس العاملون مناطق البطالة للانتقال الى مناطق إمكانات عمل أفضل. فلماذا، اذن، لا يترك جميع الناس المحرومين اقتصادياً في منطقة الاپالاش في أي مناطق أفضل حظاً في إمكانات وجود عمل؟ مرة أخرى، في أثناء أوقات حين توجد اسواق عمل متشعبة نسبياً في بعض مراكز المدن في الولايات المتحدة، فلماذا يستمر ناس من بعض المناطق الريفية على الهجرة الى مراكز المدن هذه حيث يلاقون صعوبة عظمى في إيجاد عمل؟

إن الإنسان الحديث يقرر أفعاله من مجموعة معقدة من الدوافع الاقتصادية وغير الاقتصادية، ومنها صلته العاطفية بموطنه وخوفه من المناطق المجهولة. السلوك الاقتصادي للانسان غير الغربي ايضاً، يستند الى سعي ذكي عن الفائدة الاقتصادية، زائداً مجموعة واسعة من الدوافع الغامضة. ولكنها مفهومة في ما يخص

صلته العاطفية بموطنه، وإخلاصه الى أقربائه، وخوفه من طلبات الأقرباء، وقلقه بشأن مواقف الكائنات الخارقة (من آلهته وآلهة الإنسان الأبيض) ودوافع أخرى كثيرة.

٤- تجعل عادات ومعتقدات الشعوب مفهومة في الغالب بدراستها في ما يخص علاقاتها الاجتماعية المتبادلة بين أنماط وأوضاع وادوار الإفراد والجماعات في العمل الاجتماعي.

الختان المؤلم وقلع الأسنان الأمامية والإعمال البدنية المرهقة، وعقد الغناء والرقص الذي تفرضه الأساطير، نسبة اسماء جديدة على المبتدئين بعمل جديد، وسمات أخرى لشعائر الابتداء الذكورية في كثير من المجتمعات قد تبدو في اول انطباع أنها ممارسات بربرية لامعنى لها. وإذا لوحظت ببساطة بأنها تقاليد لاعلاقة لها بعناصر أخرى من تنظيم حضاري، فإننا نستطيع ان نستنتج فهماً قليلاً لهذه الطقوس. ولكن هذه وأنواع أخرى من الشعائر يبدأ فهمها بأنها أفعال بشرية اذا نظرنا إليها على أنها تمثيل رمزي لتحولات أوضاع مهمة يمر بتجربتها أولاد في دورة ولادة ونضج وموت. ويبقى اذن فحص الصفات الخاصة بمجتمعات لها طقوس إدخال شخص في عمل جديد، لإيجاد أي صفات اجتماعية ونفسية خاصة تبدو انها تعلل هذه الشعائر. احد التفسيرات الذي تؤيده ادلة إحصائية، يبين ان شعيرة الابتداء المؤلم لها علاقة بترتيبات اسرية مألوفة تنمية هوية جنسية مغايرة قوية للاولاد.

توجد هذه العمليات، مثلاً، في مجتمعات تعدد الزوجات وفي مجتمعات ينام فيها الرجل المتزوج في "بيت الرجال" في حين تنام الزوجة والأطفال في مساكنهم المنفصلة. لكي يصبح الأولاد رجالاً

في مثل هذه المجتمعات يجري تمثيل "إعادة ولادة" يصحبه كثير من ترميز وضع جديد. هذا النوع من التحليل لشعائر ابتداء الذكورة يشير أيضاً الى نظرة عميقة عامة مهمة اخرى ظهرت في دراسة الانثروبولوجيا.

٥- تكون تقاليد ومعتقدات الشعوب مفهومة أكثر إذا درسناها من منظور سايكولوجي وحضاري مركب.

فضلاً عن التداخلات السايكولوجية المستعملة آنفاً في تحليل شعائر التحول في الأوضاع، ذكرنا في (الفصل الرابع) كيف ان المعتقدات في السحر والشعوذة تكون مفهومة في ما يتعلق بالتوتر والقلق الشخصي. السلوك الذي يتراوح بين "تجنب ام الزوج او الزوجة" وبين الطقوس المعتقدة "لشعائر التمرد" يمكن ان توضع في منظور أوضح بعلاقة متبادلة حريصة بين النظرية السايكولوجية والمراقبات الحضارية والاجتماعية. يتطلب هذا التحليل في بعض الأحيان استعمال وسائل اختبار نفسية.

٦- ان تحليل تضمينات (او وظائف) السلوك الحضاري، يجب أن يأخذ بنظر الاعتبار المعتقدات والنوايا الواضحة للناس المشمولين به، ولكن التحليل أيضاً يجب ان يتم لمزيد من النتائج غير الملحوظة وغير المقصودة (وتسمى وظائف مستترة) لأفعال ومعتقدات خاصة.

مثال إيضاحي لهذا المبدأ يمكن اشتقاقه من نظرة الى تقليد ربط الطفل الرضيع في المهد بين شعوب كولومبيا البريطانية في المنطقة الساحلية. تفسير تقليد ربط الرضيع بقوة بالمهد، بين بعض هؤلاء الهنود، إنه إجراء جمالي. فانه يجعل خلفية جمجمة الوليد مسطحة بطريقة يعدّها الناس وسيمة. وحين بطل استعمال ذلك

التقليد اكتشفت وظيفة مستترة، غير منظورة، مهمة للمهد. المهـد وسيلة لرعاية الأطفال! فحين يكون الأطفال في عمـر الزحـف لـم يعودوا يوضعون في المهد فان أمهاتهم يجدنهم في عمليـة جديـدة للمراقبة يرين إن الطفل لم يزحف الى النار أو يقع في ماء قريـب. الأمهات، لذلك، لم يعدن إلى استعمال المهد (لان البـيض يعتبرونـه بدائياً) ولكن كان من الواجب تطوير نمط جديد لرعاية الأطفال.

٧- دراسة عملية لاي سلوك ومعتقد بـين الشـعوب البدائيـة، ولا أهمية لكونه غير مألوف، تكون ذات علاقة مباشرة لفهم حضـارتنا المعقدة، لأنه يبدو ان البشر في كـل مكـان يشـكلون معتقـداتهم وسلوكهم استجابة الى المشكلات البشرية الأساسية نفسها.

يسعى البشر جميعاً في كل مكان ان يأكلوا ويشربوا ما فيـه الكفاية ويلتجئوا من الخطر والمزعجات الطبيعية، وتأمين ردود فعل مناسبة من زملائهم، وطلب الراحة عند المرض او التهديد او القلق، وإيجاد تفسيرات مقنعة للظواهر الطبيعية التي يشاهدونا في العـالم. حلول هذه المشكلات البشرية مختلفة تماماً عن مشـكلات مشـابهة أساسياً. وهذا سبب ان الحضارات لم يتطور جميعها بمراحـل مـن التطور ثابتة ومتشابهة. كما كان يعتقد علماء التطور فـي القـرن التاسع عشر. ولكن ثمة أدلة كثيرة على وحدة البشرية الحضارية.

أ. وجدت نظائر مذهلة في النتائج الحضارية المتعاقبة المتطورة بنحو مستقل في الحضارات الأولى في العالم القديم والجديد (يراجـع بنـد دلائل التطور الحضاري البشري).

ب. يوجد عدد كبير من "الكائنات المنطقية" الحضـارية، أمثـال اللغـة وأنظمة القرابة، الحشمة بخصوص الوظائف الطبيعية، تنظيم السلوك

الجنسي، استعمال النار، تسمية الإفـراد، الاعتقـاد بعـالم خـارق، الموسيقى والفنون الأخرى، وعشرات من الأنماط الحضارية.

ج. دراسات إحصائية حضارية مقارنة، مثل ما وصف في بنـد تركيبـة المعلومات الانثروبولوجية، تبين علاقات متبادلة بين سمات حضارية بشرية يظهر انها تستند إلى نوع من الوحدة النفسية.

د. لم يجد الانثروبولوجيون أي شعب نظام لغته ومنطقه غير مفهوم.

٨- تفسير السلوك البشري أحادي الجانب وغير كامل في الأسـاس ما لم يؤخذ في الاعتبار معلومات عن خصائص الإنسان البايولوجية والحضارية الاجتماعية والنفسية، مع معلومات عن بيئـة الإنسـان الحياتية الطبيعية.

هذه النظرة العميقة الأساسية توفر الأساس المنطقي لأسلوب الدمج الكلي في البحث الذي يميز دراسة الانثروبولوجي.

ويجب إضافة هذه النظرات الثاقبة، من الناحية البايولوجيـة للدراسات الانثروبولوجية:

٩- على الرغم من ان شعوب العالم قد تكـون منقسـمة انقسـاماً اعتباطياً، غير منتظم الى "أعراق" مختلفة او جماعات رئيسة، تستند الى خصائص طبيعية، فانه لا يوجد أي عرق نقي، ولعله لم يوجـد قط. توجد إعداد كبيرة من الإفراد المتوسطين في الخصائص العرقية بحيث لايمكن رسم "حدود" حادة تفصل الشعوب الزنجية والقفقاسـية والمغولية.

١٠- لايوجد أي دليل غير قابل للنقاش على الفروق المهمـة فـي القدرة او الذكاء بين التجمعات العرقية الرئيسة في العالم.

١١- على نقيض المعتقدات التي ما تزال واسعة الانتشار، الإفراد الذين هم نتاج "امتزاج" عرقي، او تهجين، هم عموماً أرقى من والديهم "النقيي الدم" في القوة والبنية البدنية وخصائص أخرى. ظاهرة "القوة الهجينة" معروفة بين كثير من فصائل الحيوانات والنباتات "الدنيا" أيضاً.

١٢- اكتشف انثروبولوجيون (وعلماء آخرون) انه لاتوجد خصائص بايولوجية بشرية غير متأثرة بتجارب الحياة وظروف البيئة. وعلى الضد من ذلك لاتوجد خصائص بشرية في التفكير او العمل يمكن اعتبارها غير متأثرة بعوامل بايولوجية متوارثة جينياً.

وكثيراً ما تصادم الانثروبولوجيون مع المدافعين عن " تفوق العرق الأبيض" و "التفوق الآري" والإشكال الأخرى من العنصرية. العنصريون، من أمثال كونت گوبينو قبل قرن نزولاً الى ادولف هتلر و (حالياً) كارلتن پوتنام، اما انهم تجاهلوا الأدلة. الانثروبولوجية او حرفوها تحريفاً عظيماً لاغراضهم المتحاملة. الفرضية المنطقية المركزية للانثروبولوجيين في معارضة العنصريين تواصل وجودها:

١٣- عملياً، جميع الفروق في السلوك بين ابناء البشر وبضمنها التعبير عن المواقف و "الذكاء" وخصائص نفسية أخرى، تفهم على انها أنماط حضارية مكتسبة بالتعلم وليست خصائص متوارثة بايولوجياً.

مشكلات كبرى للبحث

ان ابتكار منجزات البحث الانثروبولوجي يمثل واقعياً إطاراً أولياً فقط لعلم السلوك البشري. كل من المسلمات المدرجة آنفاً تثير

عشرات من وسائل البحث الوثيقة الصلة بالموضوع. وان المعرفة الدقيقة والمفصلة يمكن ان تتنبأ بالسلوك البشري الحضاري في ظروف خاصة ما تزال بعيدة جداً عن التحقيق. يحتاج الانثروبولوجيين يحتاجون حاجة ماسة الى مزيد من ادوات اكثر دقة لمراقبة الحضارات وتسجيلها وتحليلها.

أ-مشكلات منهجية للبحث

١- يجب ان تتطور المراقبة الانثروبولوجية الى ما يظهر بصورة ملائمة التغيرات العظيمة في السلوك الموجود حتى في ابسط المجتمعات. لقد اولى الانثروبولوجيون حتى وقت قريب اهتماماً قليلاً بمشكلات "العينات الوافية بالمرام" وتمثيل معلوماتها. وقد شعروا ان سلوك الناس البدائيين محدد جداً بتقليد بحيث لايوجد الا فرق قليل، حتى ان الانحراف عن التقليد يمكن ملاحظته بسرعة. ان الانطباع عن تماثل السلوك في المجتمعات البسيطة قد يكون تحريفاً من الواقع الذي انتجته وسائل البحث والافتراضات البسيطة لدى الانثروبولوجيين الاوائل.

٢- الاختبارات السايكولوجية والتقنيات الجديدة الاخرى الخالية من الحضارة تحتاج الى استنباط لدراسة حضارية مقارنة للدوافع والمواقف والقيم والذكاء وخصائص فردية اخرى. عملياً، جميع الاختبارات والوسائل المستعملة الآن، ابتكرت للاستعمال بين المتعلمين (من الطبقة الوسطى في الغالب) من المجتمع الغربي، لذلك توجد مشكلات مهمة مشابهة لمشكلات الاختبار حتى في الجماعات الدنيا داخل الحضارة الاميركية.

٣- يجب على العمل الميداني الانثروبولوجي ان يتخلص من نتائج التحيزات العاطفية لدى المراقب او يقللها في الاقل. (احدى الطرق لتحقيق هذا الهدف جزئياً هي بواسطة فريق البحث ينفذ العمل الميداني في المجتمع نفسه عدة مراقبين وجهات نظر مختلفة).

٤- يجب ابتكار وحدات قياسية للمراقبة والسلوك متساوية في امكان تطبيقها في مدى واسع من الحضارات المختلفة. كثير من تصنيفاتنا الاولى للمراقبة (مثلاً، المنزل الابوي، شعائر الخصوبة، تعدد الآلهة، مجتمع الصيد وجمع القوت) هي مواضع لتمشية الحال نضع فيها مجموعة من السلوك المختلط. والحاجة تدعو الى مفاهيم اكثر نقاوة عملياً في جميع اوجه السلوك البشري.

٥- منشآت نظرية مثل "التاثر الحضاري" و "الفردانية" و "اختلال النظام الاجتماعي" و "اختلال النظام الحضاري" و "التعاون"، "هيمنة الذكر" وكثير غيرها بحاجة ماسة شديدة الى تعريفات عملية نقية.

٦- يحتاج الانثروبولوجيون الى البحث عن مزيد من المواقف التي تقرب الاقوال التجريبية. فمثلاً، يتستطيع الانثروبولوجيون ان يجدوا أحياناً ازواجاً (او مجموعات اوسع) من المجتمع متشابهة جداً من الناحية الحضارية، ما عدا بعض التغير "التجريبي" الجديد في احدى الحالات، التي يستطيع الانثروبولوجيون مقارنتها بوضع في المجتمع الذي لم يمر بتجربة التغير الدخلية الخاصة. المناهج الاحصائية الحديثة تقدم امكان استطاعة الانثروبولوجي ان يراقب ويقيس المؤثرات المغايرة لعدة متغيرات في وقت واحد.

٧- تقنيات دراسة المجتمع وجهاً لوجه، البسيطة نسبياً لدى الانثروبولوجي تحتاج الى تعديل وتكملة لدراسة المجتمعات المتعددة الجماعات وضمنها مجتمعنا.

ا-مشكلات نظرية للبحث

كما بينا آنفاً، المشكلات النظرية التي تطالب بالبحث كثيرة جداً حتى ان ادراجها في أي قوائم يبدو انه يدل على حماقة او تشويه. ولكن هذه بعض المسائل الخادعة التي راودت الانثروبولوجيين كثيراً.

١- ألى أي مدى من الممكن (ومن المحتمل) للمجتمعات ان تحافظ على الفرقة او حتى عدم الاتفاق، على اساس القيم والمعتقدات ومع ذلك تبقى انظمة اجتماعية منظمةً، قابلة للنمو؟

نظرية انثروبولوجية سابقة (ونظريات اخرى اجتماعية) اكدت حاجة عظيمة لمجتمع يحوي قيماً تحظى باتفاق جماعي في الراي او موافقة على المبادئ وقواعد السلوك لكي يكون معافى. وجدت حديثاً ادلة منطقية وتجربية بان مثل هذا الاجماع الذي يخص قيماً ومواقف كبرى ليس امراً ضرورياً لابد منه للتفاعل والتعاون حتى في ابسط الانظمة الاجتماعية.

٢- الى أي مدى من الممكن (والمحتمل) للناس ان يغيروا معتقداتهم وممارساتهم بسرعة من غير معاناة تفسخ حضاري واضطراب عقلي؟

مرة اخرى، كان موقف الانثروبولوجيين الاسبق ان التغير الحضاري السريع مسيء للسمعة وغير صحي بشكل لامفر منه ولكن جميع الحضارات تتبدل وان معظم شعوب العالم اليوم تمر بتجربة تغير سريع نسبياً .

المشكلة النظرية الرئيسة هي: ما مدى واي انواع من التغيرات "مسيئة للسمعة" و"ضارة عقلياً"؟.

٣- الى أي مدى يمكن لانماط مشابهة في التطور الحضاري ان توجد بين بيئات وثقافات متباينة في العالم؟

هذه هي المسألة التي ظن اصحاب نظرية التطور في القرن التاسع عشر انهم اجابوا عنها والى أي انثروبولوجين حديثين عادوا الان باهتمام متجدد. (ينظر النقاش عن التطور المتعدد الاتجاهات في الفصل الرابع).

٤- الى أي مدى، حسب معايير الصحة العقلية والبدنية يمكن جعل التطورات في بعض الاتماط والانظمة الحضارية "افضل" "واكثر عافية" من غيرها؟

يرى كثير من الانثروبولوجيين انه لا يمكن اصدار أي احكام مطلقة بخصوص مزايا انماط وانظمة حضارية مختلفة. من الناحية الاخرى تلك الاحكام المستخدمة في الانثروبولوجيا منحصرة في برامج تطور كثيرة حيث يجب اصدار مثل تلك التقييمات. تنفق الحكومات والوكالات الخاصة مليارات الدولارات في المساعدة التقنية والمعونة المستندة الى افتراضات "تخلف" و "تقدم" نسبي وأحكام قيم أخرى. إن النوايا الكامنة في هذه البرامج جديرة بالثناء

تماماً، غير إن احكام القيم الموجود في تطبيق هذه المقاصد على مجتمعات خاصة تترك في اغلب الاحيان بلا دراسة. كثير من معظم المعرفة الجديدة المفيدة في الانثروبولوجيا يوجد في مجال "النتائج غير المقصودة" لمشاريع تطوير خاصة.

ان مهمة الانثروبولوجي ليست بطبيعة الحال، تقييم الانماط الحضارية بانها "افضل" او "اسوأ" لان مثل هذه الاحكام المعيارية هي في اغلب الاحيان الاسباب الرئيسية لمشاهدات اثنوغرافية ذاتية (ومغلوطة، سيكون اهم عمل في الانثروبولوجيا في ايجاد نظرية يمكن ان تصبح فيها انواع من السلوك البشري المختلفة اكثر تفهماً وقابلية للتنبؤ. من غير هذا التفهم فان برامج التطوير و "التحديث" الحسنة النوايا يمكن ان تؤدي الى كثير من الاختلال التنظيمي الحضاري والمعاناة البشرية غير المقصودة بين الناس الذين يفترض انهم سيفيدون من مثل هذه البرامج.

خلاصة واستنتاجات

قدرة الانسان على الابتكار ومعالجة نظم ذات اتصال رمزي تميزه تمييزاً واضحاً عن غيره من الحيوانات. انظمة الرموز-الحضارات- المتنوعة لمختلف الشعوب يمكنها جميعاً ان تعد طرائق من التكيف لبيئات خاصة . لذلك يجب دراسة التقاليد الحضارية في سياق كلي من الظروف التي تحدث فيها. لقد جمعنا الان قائمة محترمة بجرد الاوصاف الحضارية الماضية والحاضرة المتعلقة ببيئات مختلفة، ويبدو ان مرحلة جديدة مثيرة من الدراسة الانثروبولوجيا هي في طور التكوين. تعد الانثروبولوجيا في اغلب الاحيان مجموعة من الحقائق الغريبة التي تروي عن المظهر

الغريب لاناس غرباء وتصف تقاليدهم ومعتقداتهم الغريبة. ينظر اليها على انها اختلاف ممتع، من غير الاتصال كما يبدو بسلوك حياة المجتمعات المتمدنة. هذا الرأي مغلوط واني وطيد الامل، اكثر من ذلك، في كشف ان فهم مبادئ الانثروبولوجيا ينير العمليات الاجتماعية في ازماننا ولعله يرينا، اذا كنا مستعدين للاستمتاع الى تعاليمها،ماذا نفعل وماذا نتجنب.

الفصل السادس
مناهج مقترحة لمدرس الانثروبولوجيا
تأليف/ ريموند هـ.. مويسك و فنسنت ر. روجرز

مقدمة
تعميمات الانثروبولوجية وإيضاحات منهجية

لاحظ ڤالتر گولدشمت ان "الحضارات كثيرة مع ان الإنسان واحد." ان ملاحظة گولد شمت البليغة الموجزة محملة بمعنى لكثير من الانثروبولوجيين. غير ان هذا القول نفسه حقيقة بديهية ضبابية لدى كثير من البالغين العاديين ومعظم طلبة المدارس الابتدائية. والثانوية. وسواء نظر الى تعبيرات مشابهة بأنها بديهية او جديرة بالتحري المتواصل فان ذلك يعتمد على الخلفية المعرفية والعاطفية للشخص الذي يلاحظ.

ويمكن للمعرفة الزراعية ان تؤدي الى فرق في الحاصل الزراعي الذي يحصل عليه الفلاح من مساحة (ايكر) أربعة آلاف متر مربع من الأرض. وان دراسة الانثروبولوجي يمكن ان تزيد ما يجمعه المرء من أحكام شخصية عامة.

لخصت الفصول الماضية أطاراً مفاهيمياً يقدم دعماً بحثياً لأفكار تشبه افكار گولد شمت. هذا الفصل يوسع البنية لتشمل بعض طرائق تطوير الأفكار العميقة الانثروبولوجية في مدارسنا. لقد تأثرنا مراراً بالأفكار التعليمية المنبثقة طبيعياً من موضوع الدكتور پيلتو،

غير اننا نستطيع ان نركز على ثماني افكار منها فقط في هذا الفصل الموجز.

١ _ يبدو ان البشر في كل مكـان يشـكلون معتقـداتهم وسـلوكهم استجابة للمشكلات والاحتياجات البشرية الاساسية نفسها.

يبدو حسب الظاهر وجود مشكلات اساسية معينة يجب حلها واحتياجات يجب ان يشبعها الناس في كل مكان علـى الـرغم مـن اختلاف وسائلهم في الوصول الى الحل وتحقيق اشباع الاحتياجـات الإنسان يجوع فيجب ان يأكل، ويتعب وعليه ان يرتاح وينام. ويشعر بعدم الراحة حين تواجهه امور غير ودية ويسـعى الـى الاحتمـاء والوقاية. انه يواجه إسرار الولادة والحياة والمـوت، يلـد أطفـالاً ويربيهم، يتأمل الفناء والخلود. يـرى الشـمس والقمـر والنجـوم ويفسرها بطرق متباينة.

فهم مشكلات الإنسان واحتياجاته وكيف يراها ويتعامل معها في أوضاعه المختلفة امر حاسم من "وجهة النظر الانثروبولوجية". قد تساعد الطرق الآتية الاطفال والشباب في رؤية أوضح عموميـة مأزق الانسان ومشاعره وطلباته والجهات التي تاتيه منها.

مجموعة ادوارد شتايخن للصـور الفوتغرافيـة العظيمـة، "عائلة الانسان"، يمكن استعمالها وسـيلة لدراسـة بعـض إحـزان الإنسان وهمومه ومطامحه ومنجزاته. شكلها تضم "عائلة الانسـان" صوراً تتناول مدى واسعاً من التجربة الإنسانية من بلـدان العـالم، بضمنها الولايات المتحدة وايطاليا وألمانيا والسويد وروسيا والصين والهند والكونغو وغينيا الجديدة وكثير وغيرهـا. يمكـن ان تمـرر الصور على طلبة الصف او ترفع امام الصف، او تعرض بالبروجكتر

او في لوحه اعلانات. في البدء، يمكن ان يرى الطلبة صوراً ذات صلة بموضوع واحد حتى يستوعبوا فكرة ستايخن. ويمكن للطلبة الصغار ان يناقشوا صوراً فوتوغرافية لأطفال يلعبون في مناطق مختلفة. ويمكن ان يستجيب الطلبة الاكبر عمراً لإشكال مختلفة من العمل او حفلات الزفاف. وبعد ذلك يمكن استعمال صور مجموعة في موضوعات ذات صلة بالعاطفة والنضج. ويمكن بعد ذلك للمدرس ان يسأل طلبة الصف ان يعطوا عناوين للعرض الكامل ويقارنوا أفكارهم بالعنوان الأصلي. وأخيراً، يمكن ان يصوغوا حكماً عاماً تبينه مجموعة صور شتايخن مشابهاً لما سيناقش هنا.

وسيلة بصرية اخرى لدراسة مصاعب اولية في الجنس البشري، وضرورياته وتحدياته، تشمل استعمال تخطيطات شباب ورسومهم الملونة من أنحاء أخرى من العالم. يمكن استعارة مجموعات صور من وكالات، مثل جمعية آسيا وجمعية اليابان. وثمة مصدر رخيص هو نسخة مسابقة الأطفال الفنية التي تقيمها سنوياً مجلة شانكار الهندية الصادرة في نيو دلهي. المظاهر والأماكن، تختلف بطبيعة الحال، من حضارة الى حضارة، غير ان موضوع رسوم الاطفال غالباً ما يكون متشابهاً الى حد مدهش. فمثلاً، الطعام والملبس واحتياجات المأوى وعلاقات الأطفال بالوالدين يظهر في أكثر الأحيان.

مجموعة هانس رايخ للصور الفوتوغرافية المعنونة "اطفال بلدان كثيرة" يمكن استعمالها بأسلوب مختلف قليلاً لمساعدة الصغار في استيعاب المفاهيم الرئيسة الاولى التي شخصناها في هذا الفصل.

يمكن للمدرس ان يختار عدداً من صور اطفال العالم الملتقطة لهم وهم في حالات نفسية معينة ومنهمكين في نشاطات متنوعة. في البدء، يمكن ان يطلب من الطلبة البحث عن الظروف الظاهرة في الصور. ولعل الاطفال تشغلهم الملابس ونقاط سطحية اخرى. وبعد تعداد الفروق يشجعون على تشخيص التشابهات.

حتى الاطفال الصغار يستطيعون ادراك تشابهات إنسانية قليلة باستعمال قصص مثل قصة "تومي وديدي". كتب هذا الكتاب باسلوب بسيط وصور ببراعة مقارنة بين تومي، ولد أميركي عمره خمس سنوات، وديدي شبيهته الصينية. القسم الاول من الكتاب يؤكد جميع انواع الفروق بين الطفلين. معلم الروضة او المدرسة الاولية يمكن ان يتوقف في منتصف المسافة ليدعو الى التعليقات والاسئلة. وبعد قراءة النصف الثاني من "تومي وديدي" يمكن للمعلم ان يستعمل هذه المقاطع (مع صورها المصاحبة، طبعاً، أساساً لنقاش صريح لبعض ردود الفعل المشتركة:

تومي يحب الحلوى
ديدي تحب الحلوى أيضاً.
تومي يحب ان يلعب دور راعي بقر يطارد شريراً.
ديدي تحب ان تطارد على حصان رجلاً شريراً، أيضاً.
ديدي تحب إظهار البراعة.
تومي يحب اظهار البراعة، ايضاً.
حين يتأذى تومي، يصيح "وا-وا"
وحين تبكي ديدي تصيح "وا-وا" أيضاً.

وحين يضحك الاثنان، يقولان، "ها-ها ، ها-ها-ها!"
انهما يعيشان متباعدين في نصفي الكرة الارضية ولكنهما متشابهان كثيراً.

قصيدة "بعض الأطفال هم...." من تاليف يو تينيفورد من اوسلو، في النرويج، يمكن استعمالها في مرحلة الدراسة المتوسطة لمتابعة نظرتنا الانثروبولوجية الاستهلالية:

بعض الأطفال سمر
مثل رغيف خبزٍ خبز، حديثاً،
بعض الاطفال صفر
وبعضهم حمر،
بعض الاطفال بيض
وبعضهم زرق تقريباً،
ألوانهم مختلفة-
انهم أطفال مثلكم!
بعض الاطفال يأكلون العصيدة
وبعضهم يأكلون التين،
بعض الاطفال يأكلون ايس كريم
وبعضهم يأكلون كمأً مسلوقاً!
بعض الأطفال يأكلون سمكاً نيئاً
وبعضهم يأكلون سمكاً مطبوخاً
ميولهم في ما يحبون مختلفة-
انهم أطفال مثلكم!

بعض الأطفال يقولون "بس"
وبعضهم يقولون "وي"
وبعضهم يقولون "يا"
وبعضهم يقولون "سي"
بعض الاطفال يقولون "پيپ"
وبعضهم يقولون "بوه"
(وبعضهم يقولون نعم)
كلماتهم قد تكون مختلفة-
ولكنهم اطفال مثلكم!
بعض الاطفال يلبسون كنزات صوف
وبعضهم يلبسون شملات
وبعضهم يلبسون كيمونو
وبعضهم يمشون عراة
ولايليبسون الا ضفائرهم
وقد تكون ملابسهم مختلفة-
ولكنهم اطفال مثلكم!
بعض الاطفال يسكنون بيوتاً
من حجر في شوارع!
وبعضهم يسكنون في اكواخ مقببة،
وبعضهم يسكنون في سفن،
وبعضهم يسكنون اكواخاً من اغصان شجر،
وبعضهم في.....جديدة
بيوتهم قد تكون مختلفة-

لكنهم اطفال مثلكم!
بعض الاطفال فنلنديون
وبعضهم من اليابان،
بعضهم نرويجيون
وبعضهم من السودان
أي نعم، عندنا
اطفال في الوادي، وعلى القمة.
بلدانهم مختلفة،
ولكن الاطفال متشابهون!
ان أرادوا الرقص
واذا ارادوا اللعب
فانهم يكونون معاً
في يوم رائع!
بعضهم يأتون بالزوارق
وبعضهم بالسيارات!
وذلك اختلاف كبير
ولكن الاطفال متشابهون

شيء آخر يمكن للمدرس ان يقرأه لصفه: ثلاثة او اربعة تفسيرات حضارية مقارنة عن خلق الارض وبدايات الانسان كما موصوف في كتاب صوفيا فاهاس المذهل. عنوانه:

"بدايات: الارض والسماء والارض." فيه، مثلاً، أسطورة من شعب استراليا الأصليين عن الشروق الاول الغروب الأول. وقصة من هنود اروكوي الأميركيين عن الحيوانات الاولى، والقصة من

ميووك الهنود الاميركيين عن اصول الانسان، وكثير غير ذلك. يستطيع المدرس ان يدير النقاش الى فكرة وجود كثير من المسائل الملحة التي تسألها المجتمعات منذ ازمان ممعنة في القدم. وصلت الاجوبة متنوعة غير ان الأسئلة ظلت نفسها. وأخيراً، في مسحة اخرى، يمكن لطلبة المدارس العليا ان يستفيدوا من قراءة قصة بيرل بك الجميلة بعنوان (الموجة الكبيرة)، موجة مد بحرية. القصة عن عائلة يابانية تعيش في منطقة تهددها موجة بحرية. حين يعبر طفل عن خوفه من الموجة ومن الموت نفسه، يقدم له ابوه هنا التفسير:

قال ابو كينو: الموت باب عظيم

لم يكن وجه الاب حزيناً قط، بل كان هادئاً وسعيداً.

سأل كينو مرة اخرى: واين الباب؟

ابتسم ابو كينو: أتتذكر حين ولدت؟

هز كينو رأسه: كنت صغيراً جداً.

ضحك ابو كينو: انا اتذكر جيداً. انت فكرت: ما أصعب ان يولد الانسان! انت بكيت وصرخت.

سأل كينو. كان ذلك شيئاً ممتعاً له: الم اكن أُريد ان اولد؟

قال له ابوه باسماً: لم تكن تريد. اردت ان تبقى حيث كنت في البيت الدافئ المظلم، بيت الذين لم يولدوا. ولكن حان الوقت ان تولد، وانفتح باب الحياة.

سأل كينو: هل عرفت انا انه باب الحياة؟

أجاب أبوه: انت لم تعرف أي شيء عنه لذلك كنت خائفاً منه. ولكن ما أحمقك حينذاك! كنا نحن بانتظارك، نحن والداك، نحبك ومتلهفين للترحيب بك. وكنت انت سعيداً جداً، اليس كذلك؟

أجاب كينو: حين جاءت الموجه الكبيرة. انا الان خائف ايضاً بسبب الموت الذي تجلبه تلك الموجة.

اجاب ابوه: انت خائف لانك لاتعرف شيئاً عن الموت.. ولكنك سوف تسأل ذات يوم لماذا كنت خائفاً، حتى كما انت اليوم تسأل لماذا كنت تخاف ان تولد.

مرة اخرى، يمكن للصف ان يناقشوا، تفسير الاب الياباني، ويقارنوه بمصادر اخرى واقعية وخيالية ويتوسعوا في نقاط تظهر في النقاش. واخيراً، يستطيع المدرس ان يقود طلبته الى ملاحظة ان الناس في كل مكان يواجهون الموت ويحاولون تكوين اجوبة تتعلق بمعناه.

٢- عملياً، جميع الفروق المهمة في سلوك الانسان تفهم على انها اختلافات في انماط سلوك اجتماعي مكتسبة بالتعلم- وليست فروقاً من الاجهزة البايولوجية او صنف الدم او أي عملية آليه اخرى متوارثة جينياً.

في عالمنا المختلف، على الاطفال والشباب ان يفهموا ان وراثة الانسان البايولوجية تسمح بأشكال لاتحصى من السلوك. وانها ايضا تضع تعقيدات معينة للاشياء التي يستطيع ان يعملها. يستطيع الانسان ان يتعلم لغة واحدة او لغات، ويتذكر احداث الماضي ويفكر ويسجل افكاره. ولكن لايستطيع ان يبقى تحت الماء مدة طويلة من الوقت من غير جهاز خاص اخترعه لذلك، ولايتحمل درجة حرارة تحت الصفر او يتعرض لمدة طويلة لأشعة شمس لاهبة من غير ملابس واقية او مأوى، او يهشم جلمود صخر بيده المجردة. ابتكر الإنسان ونظم انواعاً لاتحصى من الحضارة وتكيف

لها- ولدت من الحاجة الى تطمين رغباته البايولوجية ولكن امتلك صفات تفوقت على العوامل الفسيولوجية الصرف. وقد يسرت بنية الإنسان البايولوجية له ان يبصر ويسمع ويشم ويتذوق ويحس. وان حضارته تستطيع ان تؤثر بالإشكال والهيئات والالوان التي يدركها بحواسه، وتعجبه او لاتعجبه، والأصوات التي تسره او لاتسره، تطمئنه او تخيفه، والروائح والمذاقات يستطيبها او يعافها، والملموسات تريحه او تزعجه. وبوسع بدنه ان يتطور بحيث يمتلك قوة لقتل خصم او سحب انسان غريق من بحيرة، قوة البدن الكامنة بايولوجية. استعمالها مكتسب اجتماعياً بالتعلم وتتقوى.

ثمة كثير من الطرق يستطيع مدرس الصف اتخاذ فكرتنا الثانية. بخصوص نضح طلبته يستطيع التركيز على احد الحواس او الاحتياجات البايولوجية الاساسية او مجموعة منها. فمثلاً، يمكنه ان يطلب من بعض طلبة الصف ان يتصفحوا المجلات والجرائد في البيت ويجلبوا جميع الصور التي يستطيعون إيجادها التي تظهر الرضع والاطفال والشباب البالغين، وكباراً نائمين، من مختلف أنحاء العالم. وبعد ان تهيئ لجنة الطلبة لوحة صور، يمكن للمدرس ان يسأل او يكتب على السبورة بالطباشير لغرض مناقشة (او لغرض دراسة مستقلة واجوبة تحريرية) وتوجيه اسئلة كما يأتي:

- هل جميع الناس في العالم يجب ان يناموا؟ لماذا او لماذا لا؟ كيف تعرف ان جوابك صحيح؟
- هل جميع الناس ينامون على اسرة، لماذا او لماذا لا؟
- هل جميع الناس ينامون ليلاً كما تنام انت؟ لماذا او لماذا لا؟

- هل جميع الناس ينامون نفس المدة من الزمن؟ لماذا او لماذا لا؟

سيلاحظ الطلبة ان كل إنسان لابد ان ينام لان تكوينه البايولوجي يتطلب ذلك،ويستطيعون ان يكتشفوا ان المدة التي ينام فيها يمكن ان تتأثر بحضارته. فمثلاً، يمكنهم ان يبينوا ان الرضيع ينام بين ذراعي امه، وفي وسائل حمل متنوعة، عربة خفيفة، قش ملبد، سلال، او فراش شبكة معلقة، او مهد او اسرة، وغير ذلك. سيجدون ان مهنة الشخص يمكن ان تقرر متى ينام. عمال المناوبة وحرس القصور والشرطة وعاملات التنظيف الليلي وعاملات المطاعم وكثير غيرهم يعملون حين يكون طلبة الصف نائمين.

يمكن ان يلاحظ الطلبة ان الاطباء الذين يعملون في اثناء الكوارث، والجنود الذين يحاربون في المعركة، والفلاحين الذين يحصدون وطلبة الجامعة الذي يدرسون للامتحانات النهائية، يمكن ان يبقوا مدة طويلة بلا نوم او يكتفوا بغفوة قصيرة.

في اثناء مناقشة احتياجات الإنسان الأساسية ووظائفه، يمكن لطلبة المدارس العليا تشخيص الدافع الجنسي ويدركوا اهمية التناسل بانه أمر ضروري لابد منه، لبقاء البشر. انهم يحتاجون الى توجيه ووقت قليل ليكتشفوا ايضاً ان الحضارة يمكن ان تؤثر في تشجيع عمر الزواج او السماح به او انه معقول، واختيار الزوج او الزوجة، او ترتيبات عقد الزواج بين العوائل او مدة الزواج وغير ذلك. باستعمال مصدر إحصائي او ديومغرافي، يستطيع الطلبة ان يلاحظوا بسهولة الفرق في عمر الأشخاص الذين يتزوجون في مختلف الحضارات، بوسعهم ان يقارنوا الهنود وآيرلندا، مثلاً وتظهر اسئلة مهمة حين يحاول الطلبة تفسير مثل هذه الظواهر. سيجدون

بلا ريب ان كثيراً من سلوك الانسان لايمكن تفسيره فقط على اساس خصائصه البايولوجية.

حواس البصر والسمع والشم والتذوق يمكن تحريها بسهولة في ما يتعلق بدلالاتها الحضارية. يمكن ان يلاحظ الطلبة في معمل او مخزن قريب من المدرسة، مفتشاً او رئيس عمال او تقني مختص او كاتب محل تجاري، ان عينيه مدربتان على اكتشاف اقل عيب في المنجزات التي قد تمر من غير ان يراها الآخرون. وكذلك، يمكن للاطفال ان يشاهدوا منظم درجة النغم الصحيحة في بيانو المدرسة، ملاحظين الحساسية المتطورة في سمعه.

يمكن استعمال التقنية نفسها لتوضيح كيفية استطاعة الشم ان تنظم حضارياً. الناس الذين يسكنون قرب المجازر او معامل صناعة الورق او معامل الالمنيوم يمكن ان يصبحوا غير منتبهين الى الرائحة التي كانت ذات يوم خانقة لهم. البائعة في محل بيع العطور تستطيع تشخيص عدة انواع من شذاها، وهو امر لم تكن تستطيع تشخيصه حين اشغلت الوظيفة اول مرة. يدرب الجنود على شم مختلف انواع الغازات السامة. المستهلكون الاميركيون يتأثرون تماماً بالروائح المختلفة للمعدن والمطاط والقماش ورائحة الصبغ التي تبين لهم انهم جالسون في سيارة جديدة.

يمكن للاطفال أيضاً ان يدركوا العوامل الحضارية المتصلة بحاسة الذوق البايولوجية. ولاجل تحري هذا المجال يستطيع المعلم ان يصنع قائمة تدقيق الاطعمة المحلية والأجنبية. ويطلب من كل طالب ان يعين النكهة التي يحبها، وان المدرس يستطيع ان يقدم طبقاً من طعام ذي نكهة متميزة (بتوابل كثيرة، او حلو جداً او

حامض جداً، الخ...) ويدعوهم الى بيان ردود الفعل. قد يلاحظ الطلبة انهم تعلموا الاعجاب بكثير من الاطعمة نتيجة لتعرضهم اليها. واخيراً، يمكنهم ان يلاحظوا انهم بلا شك استطاعوا ان يعرفوا او ما زالوا يعرفون تقدير انواع كثيرة من الاطعمة والمطيبات اذا قدمت في اوقات مستمرة.

واذا اتخذ المدرس وجهة اخرى فانه يستطيع ان يدرس مع طلبته ما هو معروف الآن عن الخصائص البايولوجية الواضحة امثال البشرة والشعر ولون العينين وصبغة الشعر، وشكل الانف والرأس وصنف الدم. ويمكن ضبط المحتويات والمواد بما يوافق بسهولة تماماً أعمار ومستوى قابلية الصف. فمثلاً، كتبت الطبيبة مرگريت رش ليونر كتاباً للأطفال نال جائزة، عنوانه: "إنسان احمر، انسان ابيض، رئيس أفريقي: قصة لون البشرة"، يستطيع قراءته بعض طلبة الصف الثاني وعدد من طلبة الصف الثالث ومعظم طلبة الصف الرابع، وان يفهموه. تناقش المؤلفة الصبغة عموماً وتبين ان جميع الأشياء مثل الجزر تحوي عاملاً ملوناً. ويؤدي الكتاب بالتدريج الى فكرة ان الكائنات البشرية جميعاً فيها ميلانين (صبغة رئيسة في البشرة والشعر والعينين) في بشرتهم وان حالة انتشارها تقرر مقدار لون بشرة الشخص.

على مستوى اكثر تقدماً، يستطيع طلبة المدارس العالية ان يقرأوا ويناقشوا "أعراق الجنس البشري" تاليف روث بيندكت وجين ويلتفش. هذا الكراس الموجز الواضح الوافي يبين ان شعوب الارض لها اصل مشترك. يبين ان جميع اجناس البشر يستطيعون "الحراثة او المحاربة" وان الفروق العرقية بينها توضح سلوكهم.

يتناول الكتيب الخصائص العرقية، الطول وحجم الدماغ وصنف الدم بطريقة واقعية، مشيراً الى ان الخبرة والبيئة والفرصة هي عوامل عرقية في السلوك الاجتماعي. طلبة المدارس العالية ذوو القدرة العالية يمكنهم تناول "الوراثة والعرق والمجتمع" تأليف مختصين بعلم الحيوان، ل.ك دون ونيودورويوس دوبزانسكي، يفحص المؤلفان الظروف البشرية من ناحية المرجع العلمي ويستنتجان فروقاً مساعدة بين العوامل البايولوجية والثقافية. أي عدد من النسخ يمكن استعمالها لتطوير افكار مهمة. وان أي فهم مبكر لهذه الافكار قد يعمل كثيراً في تعديل، ان لم يكن تغيير، بعض المعتقدات المغلوطة التي يحملها كثير من الاميركيين.

٣- لكل مجتمع انماط مختلفة من السلوك التي تجعل من الممكن للافراد التنبؤ بسلوك بعضهم بعضاً، والتصرف على وفق ذلك.

نادراً ما يتصرف الناس بطريقة عشوائية تماماً. فحين يحاولون تطمين احتياجاتهم فان سلوكهم يتوجه نحو هدف معين. فقد تعلموا الاعتماد على درجة من الثبات في حضارتهم بحيث انهم يستطيعون استخلاص النتائج الممكنة لأعمالهم وتواصلهم مع الآخرين. يتوفر احساس من الاستقرار والامن بمعرفة ان اشكالاً معينة من السلوك تتكرر او تكون نسخة من الاصل. فيوجه الاطفال والشباب كثيراً من الاشياء التي يقولونها او يفعلونها متوقعين نتائجها. فهم يستطيعون ان يعرفوا ان العالم الانثروبولجي يبحث عن المبادئ الكامنة للانظمة الاجتماعية والحضارية بدراسة انواع كثيرة من طرق العيش البشرية.

وكلما امكن للانثروبولجي ان يجمع عينات اكثر من السلوك البشري، استطاع ان يصوغ بصورة افضل تعميمات صحيحة ومعتمدة وتوقعات دقيقة. هذه التعميمات والتوقعات الانثروبولجية اثرت وسوف تظل تشكل شيئاً من قرارات الانسان في ما يتعلق باحتياجات البشر، وطموحاته وعلاقاته.

ثمة طرق كثيرة لتعريف الاطفال في المراحل الابتدائية بفكرة ان عناصر السلوك البشري يمكن ملاحظتها وتسجيلها ثم التنبؤ بها. يمكن للمدرس ان يباشر بتعريفهم بقول شيء مثل ما يأتي:

"ايمكنكم التظاهر اليوم بان كل واحد منكم هو الوحيد في جماعتنا الغائب عن المدرسة بسبب البرد؟ تظاهر ان وقت الدوام في المدرسة لم يبدأ وانك في الفراش. لنبدأ بـ "التعهد بالولاء" على انه اول شيء في قائمتنا. والآن ماذا يمكن ان يحدث بعد ذلك؟"

يكتب المدرس على السبورة كلاً من النشاطات اليومية المفترضة كما يتذكرها ويفترضها طلبة الصف. ثم يناقش الاطفال كيف عرفوا نظام الاحداث التي ستحدث. يمكن الطلب من الصغار اعطاء امثلة على اشياء مألوفة لديهم خارج المدرسة التي تحدث بشكل متطور متواصل يعتمد عليه. فمثلاً، يمكن مساعدة كل طفل مع اخ او اخت اصغر منه بتأليف قائمة مرقمة خطوة بخطوة باشياء تحدث عادة عند النوم.

يمكن للمدرس أيضاً ان يطلب من طلبة الصف تشخيص امثلة قليلة من سوء سلوك اطفال بعمرهم تحدث مراراً في المجتمع والتبنؤ كيف يمكن للآباء معالجة هذه المشكلات الانضباطية. بعد مناقشة سلوك الوالدين المتوقع يمكن للمدرس ان يصف الموقف

الذي يقوم فيه هوبي هندي اميركي بارتكاب خطأ، مثلاً، مرة اخرى، يدعى لطلبة الصف للتنبؤ بماذا يمكن ان يحدث. بعد ذلك، يمكن للمدرس ان يقرأ فقرة من قصة "السلحفاة الصغيرة" تاليف برناديت بيني لايعاقب بها أب من هنود هوبي ولده بل خاله. ويمكن ان يضيف ان عمل الخال لا يفاجئ الولد الهوبي، بل هو ما كان يتوقعه. باستعمال مثال الهوبي، والايضاحات الاخرى، يستطيع المدرس مساعدة الصف في اكتشاف ان كثيراً مما يتعلمه الفرد في توقع ما يحدث في مواقع معينة هو نتاج امثلة متكررة ضمن اطار حضاري معين. يمكن للاطفال ان يجربوا تصور الحال إذا ما بقي شخص على نحو غير متوقع في بلد غريب حيث كل شيء مختلف جداً بحيث لايستطيع ان يعرف ماذا يفعل وماذا يتوقع ان يكون رد فعل الاخرين بسلوكه. ان مقاطع من كتاب "ألس في بلاد العجائب" تأليف لويس كارول، "رحلات كليفر" تاليف جونثان سويفت، تنقل هذا الشعور ويمكن قراءتها للأطفال.

أمر آخر يتناول فكرتنا الانثروبولوجية الرئيسة الثالثة يمكن استعماله في مستويات دراسة متنوعة. يعطي لكل طالب نسخة طبق الاصل لقائمة بالأشياء، ويطلب منه ان يضع حرف (و) عن الولد وحرف "ب" عن البنت امام الشيء الذي يعتقد ان ولداً او بنتاً يلعب له، او يلبسه، الخ... الاشياء في القائمة مفصلة على المستوى العمري لطلاب الصف. هذا جزء من القائمة:

خوذة كرة قدم

ثوب حفلة

شريط شعر

حبل لعبة قفز
سيارة نموذجية
سوار
محفظة نقود
بيزبول
افعى أليف

ثم يكتب المدرس المواد على السبورة ويضع عمود "و" وعمود "ب" امام القائمة حتى تكون اجابات الطلبة في جدول يرونه. اذا كانت المواد قد اختيرت اختياراً دقيقاً فان الاختيارات يمكن ان تكون واضحة. يستطيع المدرس الآن ان يأخذ شيئاً معيناً. ويوجه سلسلة من الاسئلة. يمكن ان يبدأ بالسؤال، "لماذا وضع جميعكم حرف (ب) امام "ثوب حفلة"؟ فقد تجيب جماعة بأن البنات فقط يلبسن ثياباً! ويمكن للمدرس ان يتبع هذا الجواب بـ "الا يلبس الاولاد ثياباً؟" قد يؤكدون للمدرس ان هذا هو واقع الحال. ثم يمكن ان يسأل، "لماذا الامر هكذا؟" يمكن ان يذكر طلبة الصف عددا من الاشياء في هذه الحال، يمكن ان يوجز المدرس بـ "لانه الشيء الصحيح الذي يجب ان يعمل." ويستطيع المدرس ان يوسع هذا النقاش حتى يدرك الطلاب ان لبس البنات الاميركيات ثياباً تقليد شائع مسلّم به ويتواصل سنة بعد اخرى. بوسع الاميركيين ان يتوقعوا بان البنات سوف يلبسن ثياباً غداً وفي الاسبوع التالي حين يأتين الى المدرسة. ويقول بهذا الافتراض اصحاب مصانع الملابس، واصحاب المخازن والباعة والوالدان والاطفال وآخرون.

وبعد ان يثبت انتظام لبس ثياب النساء نموذجاً سلوكياً، يستطيع المدرس ان يشير الى بعض الاستثناءات والظروف الحضارية. يستطيع ان يسأل ان كانت البنات دائماً يلبسن ثياباً نسائية في الولايات المتحدة. سيدرك طلبة الصف فوراً ان البنات يلبسن أردية سروالية وسروايل بناتية، وثياباً فضفاضة، وشورتات، وبدلات سباحة، وغير ذلك- اعتماداً على الموقف. ثم يمكن ان يستفهم المدرس، "ولكنكم قلتم ان الاولاد والرجال ليس عندهم ثياب نسائية ولايلبسون ابداً ثياباً نسائية في الولايات المتحدة ولا في أي مكان آخر، صحيح؟".

واخيراً يمكنه ان يري طلبة الصف صوراً فوتوغرافية لأولاد صغار في ثياب بنات في حفلة التعميد، واسكتلنديين يلبسون تنورات، وجنود يونانيين في الحرب العالمية الثانية يلبسون تنوراتهم التراثية، ورجال يلبسون تنورات "ازارية في مختلف جزر بحر الجنوب. يجب ان تكون لديهم مقدمة بشأن فكرة ما هو "صحيح" في اللبس، كما في اشياء اخرى كثيرة، يمكن تعريفه حضارياً اذا عرف المرء كثيراً عن الحضارة.

ان ما يناسب مستوى نضج الطلبة بين المرحلة الخامسة والثانية عشرة ان يقرأ لهم فقرة نصف طفلاً او بالغاً في موقف حرج وحيرة بالغة، يواجه قراراً أخلاقياً مهماً. ومن غير ان يقترح المدرس أي سياق حضاري او مجتمعي او جغرافي او تاريخي، يدعو الى نقاش صفي يتنبأ فيه الطلبة ماذا سيفعل الشخص. في معظم الامثلة يستجيب الطلبة في ما يتعلق اطارهم في المرجع والمكان والزمان، ثم يعطي المدرس كل طالب قصاصة من ورق

عليها الهوية الخاصة بالشخص المذكور، وما موقفه او وضعه في مجتمع معين، حين يقع الحدث وحيث يحصل الموقف. ونترك "الطريقة" للطالب. وبعد قراءة ما يملأ الخلفية الضرورية من اجل جواب عليم يتنبأ كيف يتصرف الشخص. ثم يشارك طلبة الصف في نتائج الدراسة والبحث المستقلين. وقد يلاحظ بعض الطلبة انهم غير قادرين على ايجاد معلومات كافية يبنون عليها تقديراً دقيقاً لما سيحدث (واذا حدث ذلك فيجب الثناء على الطلبة علناً لاعترافهم بضرورة التحفظ على الحكم. ويجب ان يشعر المدرس ان ذلك من الايام العظيمة في مهمته.) وقد يكون الطلبة الاخرون قد انجزوا عملاً كثيراً وقد يشعرون ان تنبؤاً غير نهائي بالانتظار. ويتوقع منهم الدفاع بالحقائق عن مشروع التصرف الذي قاموا به.

بعد تقديم التقارير الفردية ومناقشتها في الصف، يستطيع المدرس ان يرسم خطاً افقياً عبر السبورة ويطلب من الصف ان يضعوا تنبؤاً غير نهائي عن السلوك على هذا الخط على وفق درجات التشابه والاختلاف، والاهمية وعدم الاهمية، او معياراً آخر في اماكن حضارية معينة. في ما يأتي توضيحان موجزان لانواع القطع التي يمكن ان يقرأها المدرسون لطلبتهم لتحفيز هذا النشاط:

"بعض الاولاد يلعبون معاً. يقول احد الاولاد انهم سوف يتسابقون. ولد آخر اصغر من الاخرين، يقول انه لايريد ان يشارك في سباق الركض. فيبدأ بالمشي بطيئاً مبتعداً عن الآخرين ولكن يوقفه الولد الذي اقترح السباق. ماذا سيحدث بعد ذلك؟"

"شاب وسيم يعمل في محل حيث يرى شابة جميلة كل يوم تقريباً. هو قوي ومعافى وذكي. غير متزوج. يود ان يتزوج ويكّون

عائلة. الشابة رشيقة، مهذبة، وفاتنة. هي غير متزوجة ايضاً. ماذا سيحدث بعد ذلك؟"

يمكن للمدرس ان يبين اخيراً ان مجموعة الاولاد كانوا من هنود الهوبي الاميركيين الذين لايسيغون اجراء أي سباق بينهم. ولعل قصة الشاب والشابة فيها بنت من طبقة راقية منغلقة في الهند يعجب بها ولد من طبقة دنيا منغلقة قبل قرن من الزمان.

في كلتا الحالتين، يجب ان يفهم الطلبة التنبؤ بالسلوك يكاد يكون مستحيلاً ما لم يكن المرء عارفاً بطرق حياة الجماعة في المسألة.

٤- ان مفاهيم الانسان عن تجاربه تتأثر كثيراً بارثه الحضاري. ويميل الى رؤية طريقته الخاصة في الحياة بأنها اكثر تعقلاً وطبيعيةً.

ليس لاي كائن بشري منهج حيادي موضوعي تماماً في عالمنا المتغير الخواص. وكما ذكرت روث بيندركت "العدسات التي تنظر امه خلالها الى الحياة ليست هي العدسات نفسها التي تنظر خلالها امم اخرى." ان تجارب الانسان وعواطفه تتطور ضمن سياق خاص وحين يحاول ان يدخل اطاراً فريداً من مراجع فرد او مجموعة اخرى فانه لايستطيع تدقيق تراثه الحضاري لدى الباب وهو يسلم قبعته ومعطفه لدى مسؤول عن حجرة الايداع في المطعم. ومع هذا فان ذلك ليس سبباً للادعاء بان الاطفال في جميع المراحل لا يستطيعون دراسة طرق حياة شعب آخر بفهم وتقمص عاطفي.

ان ان تمييز فرانز بواس بين رؤية حضارة المرء نفسه بانها "اعلى" من الحضارات الاخرى ورؤيتها "اعز" لنفسه من

الأخريات امر حيوي اذا ما ارتفع المرء الى وجهة نظر انثروبولوجية". بوسع اطفالنا وشبابنا في مدارسنا الابتدائية والثانوية ان تكون لديهم فرص كثيرة لدراسة الشعوب التي تعيش وعاشت في انحاء اخرى من العالم. وسواء اخرج هؤلاء الطلبة ام لم يخرجوا من صفوفهم اكثر ايماناً بعرقهم حين بدأوا دراستهم فان ذلك يعتمد كثيراً على المواد التي يركز عليها المدرس وطرقه المنهجية والخصائص الشخصية.

يمكن للمدرسين تطوير تقنيات كثيرة لمساعدة من في عهدتهم ان يدركوا ان قالب الفرد الحضاري يمكن ان يؤثر في طريقة استجابته لشيء او موقف محفز، فمثلاً يمكن للمدرس ان يطلب من الطلبة ان يدونوا افكارهم عن القصة التي وراء صورة معينة.

فيريهم مثلاً صورة دراجة هوائية جديدة. ويسأل الصف ان يخمنوا من سيملك الدراجة وكيف تستعمل. قد يكتب كثير من الاطفال عن صبي يتسلم الدراجة هدية ليوم عيد ميلاده ويستعملها للذهاب الى مدرسة، والى اماكن اخرى مع اصدقائه، وجلب الخضار لأمه، وتسلم جرائد، وغير ذلك. ويمكن ان يقول المدرس للصف ان رجلاً مسناً اشترى الدراجة ليتمرن عليها. ويمكن للمدرس ان يساعد طلبته في ما يتعلق تماماً بخبرتهم الشخصية. الحكاية الشعبية الروسية "أمي أجمل امرأة في العالم" تقدم نهجاً آخر لتعميمنا الانثروبولوجي الرابع الذي استقصيناه من كتاب البروفيسور پيلتي. الحكاية عن طفلة صغيرة اسمها ڤاريا، تاهت عن امها. فقالت الى قرويين طيبين ان امها اجمل امرأة في العالم. وصاروا يبحثون بين

اجمل النساء عن امها ولكنهم لم يجدوا ام ڤاريا. واخيراً نختم الحكاية بهذا المقطع:

ثم جاءت امرأة متعبة مبهورة الانفاس لاهثة الى جمهور الناس. كان وجهها كبيراً وعريضاً وجسمها اكبر. كانت عيناها شقين شاحبين فوق كتلة كبيرة هي انفها. كان فمها بلا اسنان تقريباً. وكما قالت شابة قال الناس جميعاً: فتاة عادية مثل مارفا سعيدة الحظ ان تجد زوجاً لها مثل ايڤان."

صاحت الام "ڤارياشكا!" وصاحت البنت الصغيرة: "ماموشكا!" والقت كل واحدة منهما نفسها بين ذراعي الاخرى وابتسمت احداهما للاخرى. وتكورت ڤاريا على صدر امها الحنون التماساً للدفء. واشرقت الابتسامة التي اشتاقت اليها ڤاريا على وجهها مرة اخرى.

وابستم اهل القرية شاكرين حين نظرت ڤاريا اليهم من على كتف امها قائلة وهي فرحة: "هذه هي امي! الم اقل لكم ان امي اجمل امراة في الدنيا!"

كتاب "أنّا وملك سيام" الذي اوحى بموسيقى "الملك وانا" مفعم بامكانات منهجية تتعلق بفكرتنا الرابعة. المقطع الآتي يتكلم عن نفسه:

"ثم انحنت الخادمة امام (انّا) واشارت الى انف المرأة الانكليزية. ارادت ان تعرف كما يبدو هل اصبح انف انّا طويلاً من كثرة سحبه وهل يحتاج الى عمل ذلك كل يوم ليبقى طويلاًمستدقاً؟ اكدت انّا لها ان حجم الانف لم يكن مسألة تمرين او اختيار من

صاحب الانف بل هو امر طبيعي. كركرت الخادم متعاطفة واستدارت مبتعدة وهي تلمس انفها العريض باصابعها شاكرة." الاختلافات اللغوية تقدم فرصة اخرى للمدرس الخلاق لمساعدة طلبته في رد الفعل التعاطفي مع اعمال الآخرين. فمثلاً، يمكن للمدرس ان يعرض قصة "سيدتي الجميلة" من اعداد ليرنر ولوي استناداً الى مسرحية بجماليون تاليف برناردشو. مقاطع مختارة بعناية من الاصل يمكن تمثيلها في الصف ولاسيما اغنية "لماذا لايستطيع الانكليز" التي يغنيها هنري هگنز بعد سماع اليزا دوليتل تتكلم. يمكن للطلبة بعدئذ مناقشة ردود فعل الرجل الانكليزي للكلام الانكليزي العامي يمكن توجيه اسئلة كالاسئلة الآتية:

- كيف تعتقد ان اليزا بدت لهنري؟
- كيف كان رد فعلها على طريقته في الكلام؟
- كيف يبدو كل من اليزا وهنري لك؟
- أي من الاثنين هو "الصحيح"؟
- كيف يحتمل ان يكون رد فعل اصدقاء اليزا حين يسمعونها تتكلم بطريقتها الجديدة؟ هل يعتقدون ان كلام اليزا قد "تطور"؟

قد يستمر تفاعل طلبة الصف بالاشارة الى بعض انماط الكلام التي يحتمل ان يسمعها المرء في الولايات المتحدة. فمثلا، يستطيع المدرس ان يوجه سؤالاً بخصوص ميل اهالي نيو انكلاند الى حذف الراء من كلمات. مثل **barn** و **car** ويمكن توجيه سؤال الى طلبة الصف ان كانت لهجة اهالي نيو انكلاند "صحيحة" ام "مغلوطة".قد

يفكرون كيف كان رد فعلهم في الماضي حين سمعوا انماطاً كلامية مختلفة عن لهجتهم. يمكنهم ايضاً تسجيل بعض احاديثهم و الاستماع بانتباه الى لهجة محتملة غريبة عن منطقتهم. متابعة لمثل هذا النوع من النقاش يمكن قراءة المقاطع الآتية ومناقشتها من قصة "شوفلاي" تاليف لويس لينسكي.

طلب من سوزانا ان تمضي ليلتها الاولى في دار ليس من دور آميش....

دخلت شوفلاي دار بيتي ونظرت حولها. كانت الدار مختلفة عن آميش. حدقت بعينين واسعتين رأت اشياء كثيرة.

كانت الحجرات صغيرة ومزدحمة جداً، ستائر مخرمة وبسط ناعمة وصور على الجدار، كتب ومجلات وصور فوتوغرافية مؤطرة تنظر اليها من كل الجهات. صوت تلفزيون وراديو، وبيانو... بدأ التلفون يرن وواصل الرنين.. هجوم من البيت كله على عينيها واذنيها.

سالت بيتي: ماذا تريدين ان تفعلي؟

قالت شوفلاي: لا ادري.

فقالت بيتي: دعينا نشاهد التلفزيون.

جلستا على وسادتين على الارض وراحتا تنظران الى الشاشة. استطاعت شوفلاي ان ترى ظلالاً مثل اناس يروحون ويجيئون، وسمعت صوتاً يصيح عالياً. ولم تستطع ان تعرف ماذا يجري. اخذ الرجال يصوبون بنادقهم ويطلقون النار باستمرار. اربكها ذلك وارهبها.

رن جرس التلفون فنهضت بيتي لتجيب. استمعت شوفلاي الى الحديث من جانب واحد. لم تتحدث قط في حياتها بالتلفون.

اعدت السيدة فيرگسن العشاء. ووضعت بيتي كرسياً لها. وضعت يديها في حجرها لتصلي ولكنهن بدأن يأكلن.

تناولت شوفلاي بضع لقمات. لماذا جاءت الى هنا؟ وضعت شوكتها وحاولت جاهدة الا تبكي. وقالت: اريد ان اذهب الى بيتنا.

لمساعدة طلبة المدارس العليا في دراسة ميل الانسان لرؤية طريقته الخاصة في الحياة بانها اكثر تعقلاً وطبيعية، يمكن للمدرس ان يباشر في نقاش عام يتناول الآراء الشائعة التي يأخذ بها الاميركيون في المواعيد واللقاءات والمغازلة والزواج. لاريب أن الطلبة يتذكرون كثيراً من الافكار الرومانسية التي خلدتها وسائل الاتصالات مركزة على "ضرب المواعيد" و"الاخلاص" و "الحب" و "طلب الزواج" و "التزوج" و "العيش بسعادة بعد ذلك في بيت الاحلام". اجوبة الطلبة عن أسئلة مثل:

من الذي يبدأ بطلب اللقاء او البحث عن قرين للزواج؟ او "من الذي يقرر زواج الاثنين؟" تكشف هذه الاسئلة مفاهيم حضارية مختلفة بشأن هذا الوجه من الحياة الاميركية. يمكن ان يسأل المدرس بالتدريج: أيّ طلبة يفكرون ان ترتب لهم زيجاتهم. وبعد التعبير التام عن الآراء، يستطيع ان يقدم هذا الجزء من حديث حصل بين مربية أميركية وجماعة من المراهقات في الهند:

"سألت: الا تريدين ان تكوني حرة في اختيار رفيق حياتك في الزواج؟

اجابت مجموعة من الاصوات: كلا!

فوجئت بالجواب فسألت: لماذا الرفض؟

قالت احدى الفتيات: ألا يضع ذلك البنت في موقف مهين؟ الا تريد هي ان تحاول ان تبدو جميلة؟ وتجلب الانتباه اليها، وتجذب شاباً لتتأكد انها سوف تتزوج؟... وإذا لم تكن تريد ان تفعل ذلك او إنها تشعر أن ذلك خزي وعمل غير مشرف، الا يعني ذلك إنها قد لا تحصل على زوج؟ حسن، لاريب ان ذلك أمر مهين. ان ذلك يجعل الزواج منافسة تقاتل الفتيات بعضهن بعضاً من أجل الفتيان. وذلك يشجع البنت ان تتظاهر انها أفضل مما هي عليه حقاً. عليها ان يكوِّن الفتى عنها انطباعاً جيداً لكي يتزوجها... في نظامنا علينا نحن الفتيات الا نقلق أبداً. نحن نعرف اننا سوف نتزوج. وحين نكبر فان الوالدين هم الذين يجدون الشاب المناسب، ويرتبون كل شيء... كيف نستطيع ان نحكم على شخصية شاب نلتقي به؟ نحن صغيرات السن وليس لدينا تجربة. الوالدان اكبر عمراً واكثر حكمة وانهما لايخدعان بسهولة، كما نخذع نحن. انا افضل ان يختار لي والداي. من المهم ان يكون الرجل الذي أتزوجه هو الرجل المناسب. يمكن بكل سهولة ان اقع في خطأ اذا كان عليّ ان اختاره بنفسي."

٥- كل نظام حضاري بشري، منطقي ومتماسك في علاقته المتبادلة ومطلع على الافتراضات والمعرفة المتاحة للمجتمع الخاص.

استنتج فرانز بواس في دراسته الكلاسيكية "عقل الإنسان البدائي" انه "لما كانت الأشياء الاخرى متساوية، فان العرق يوصف بأنه أدنى لأنه مختلف اختلافاً أساسياً أكثر من عرقنا." الظاهرة التي وصفها بواس يمكن ان تعزى في الغالب الى عدم قدرة الفرد او الى عدم رغبته في دراسة سلوك الاخرين في ضوء ما يعرفون

ويعتقدون. فإذا نظر الى اعمال الاخرين خلال منظاره البيتي فانه يكون راغباً جداً في عدم وصف ما يراه بانه "غير اعتيادي" او "غبي" او "مغلوط". يبدو من المهم جداً لنا، عندئذ، ان المدرسين يعملون كل ما في وسعهم لمساعدة الاطفال والشباب في فهم العلاقة المؤثرة الموجودة بين سلوك جماعة وتفاهمهم وقيمهم.

يمكن ان يدفع الاطفال نحو هذه الفكرة العميقة من الانثروبولوجيا بالاستجابة الى مجموعة من المواقف المفترضة، فمثلاً، يمكن ان يتصوروا، انهم يعيشون في قرية حيث استمر مَحَلٌ (عدم سقوط الامطار) مدة طويلة وحيث يعتقد الناس ان المطر يمكن ان تسببه ضوضاء عالية. ربما انهم يحتاجون الى المطر كثيراً فانهم يقيمون مباراة ويكرمون في احتفال عام القروي الذي يستطيع ان يعمل اعلى ضجة. ويرشد المدرس الصغار الى تحرير تصوراتهم ويخبرهم بما ينبغي ان يعملوا اذا كانوا اعضاء هذا المجتمع، او يطلب من الطلبة مناقشة ما ينبغي ان يفعلوا او يكتبوا عن ذلك اذا كانوا سيقيمون في مكان يعدّ عمل الامور الجيدة للآخرين انه اهم شيء في الحياة. في كل موقف مفترض يطلب من الاطفال تخمين السلوك الذي تصوروه في ما يخص معتقدات او قيم الجماعة الخيالية.

للوصول الى هذه التعميمات بطريقة مختلفة، ويمكن للمدرس ان يعرض على صفه ثلاث او اربع صور عن الثلج. تبين احداها عاصفة ثلجية عاتية، واخرى سقوط ثلج معتدل، وثالثة ثلجاً مكدساً على رصف شارع. ويساعدهم ان يلاحظوا ان كلمة "ثلج"

استعملت في كل جواب، ثم يمكن ان يكتب الكلمات الآتية على السبورة:

اپينكاوت

ستيدلوراك

اكليروراك

ماوياك

ويطلب المدرس ان يخمنوا ماذا تعني هذه الكلمات، ثم يمكن ان يكتب الترجمة الملائمة الى جوار كل كلمة:

ابيناكوت: سقوط اول ثلج في الموسم

ستيدلوراك: ثلج تذروه الرياح حالياً عند سطح الارض.

ماوياك: ثلج رقيق

في البدء، قد يعلق الطلبة ان هذه الكلمات "غريبة" عن الثلج، ويبدو من "السخف" ان توجد كلمات متعددة للشيء نفسه. يمكن ان يسأل المدرس طلبته عند هذه النقطة ان كانت لديهم فكرة عن أي جماعة من الناس قد يحتاجون ويستعملون أنواعاً مختلفة من الكلمات عن "الثلج". سيذكرون الاسكيمو فوراً. بعد حوار موجز عن الاسكيمو وبيئتهم يظهر ان تحديد أنواع الثلج قد تكون مسألة حياة او موت.يمكن للمدرس بعد ذلك ان يسأل الأطفال ان كان من الممكن وجود وقت يمكن لاناس يعرفونهم يهتمون بنوع الثلج الذي يسقط. يمكن ان يجيب الطلاب ان الناس الذين يسوقون مركباتهم مسافات اطول في الشتاء يمكن ان يهتموا كثيراً بأحوال الثلج. يوجد فرق كبير بين ثلج موحل سريع الذوبان وثلج مكدس، متجمد. او ربما يلاحظ الطلبة ان المتزحلقين يتوجهون الى الجبال في عطلة

نهاية الأسبوع في الشتاء حين يسمعون عن توقع سقوط ثلج في شكل مسحوق. يستطيع الاطفال بالمساعدة ان يكتشفوا "من" و "متى" و "اين" ذات صلة مباشرة بفهم وقبول واهتمام باشياء وإعمال كثيرة.

يمكن تعريض طلبة المتوسطة والمدارس الاعدادية الى تعميمات بتوجيه سؤال فردي لكل طلبة الصف: هل يمكنك ان تجعل الامر مفهوماً؟ وعلى وفق المستوى الدراسي. وقابلية كل طالب، يهيئ المدرس وصفاً موجزاً لعدد من النشاطات البشرية ويتسلم كل طالب في الصف مادته ليفكر فيها ويبحثها ويوضحها ثم يشرحها لزملائه في الصف. وتجلب مصادر كثيرة مكتوبة في مستويات قرائية مختلفة من اجل هذا المشروع. ويوفر للطلبة وقت كاف للدراسة بمساعدة المدرس. ويسمح لبعض الطلبة العمل في مكتبة المدرسة. ويمكن تشجيع الطلبة الاكبر عمراً على العمل في مكتبات عامة او مكتبات الجامعة او مع باحثين في معاهد تعليم عالٍ يمكن الوصول اليهم، اذا كان ذلك ممكناً.

في البدء، قد يبدو كل نشاط للطلبة "غريباً". وقد يبدو مختلفاً ولايمكن تفسيره من ناحية، وغير منطقي وغير مترابط وغير عملي ولايمكن تصديقه، او انه غامض من ناحية اخرى. مهمة الطالب ان يجعل "السلوك او الممارسة او العادة او المعتقد مفهوماً بوضعها بأخلاص قدر الامكان في بيئتها الحضارية.

في ما يأتي مثال على ما يمكن ان يضعه المدرس على بطاقات:

هل يمكنك ان تجعل الامر مفهوماً؟

الى: أي جنكنز:

"في دلفي، بنى اليونانيون القدماء معبداً على بخار اصــفر. اعتقد الناس ان انفاس الاله ابولو تخرج من شق فــي الصــخور. جلست امرأة عرافة فوق البخار في حالة مخدرة. وظنوا ان الكلمات التي تتمتم بها هي كلمات ينطق بها ابولو، فصار اشخاص بــارزون ياتون اليها من انحاء منطقة البحــر المتوســط لاخــذ مشــورتها. ولايمكن ان يفهم كلمات المراة المتنبئة إلا الكهنة. وكانوا يضــعون الاجوبة عن الاسئلة في شكل يكاد يستحيل ان يكون خطأ"

تتناول بطاقات اخرى موضوعات مثل هذه:

- في مهرجان شتوي للهنود الحمر في شمال غربي اميركــا يحــرق رئيس هندي زوارقه ويحطم كثيراً من الممتلكات الاخرى لكي "يدحر" عدواً.
- مهرجان للازتك او المايا او الانكا يتضمن التضحية بالبشر.
- جماعة تدفن الطعام والملابس والاسلحة وغيرها مع المقاتل الميت.
- ضريح يقام في ذكرى جندي مجهول.
- رجل يشتري سيارة جديدة في كل عام حتى وان كانت سيارته تشتغل جيداً.
- امراة تنام على ادوات مؤلمة لعقص الشعر طوال الليل.

٦- الانسان له قابلية على تبني وتكييف واعــادة تكــوين الافكــار والمعتقدات والمبتكرات الحاضــرة والماضــية للآخــرين، الاحيــاء والاموات.

" ليس للانسان طبيعة بل له تــاريخ" ملاحظــة اورتيكــاي گاسيت، وان كانت مبالغاً فيها، تبدو صحيحة في الأساس. لا يوجـد مجتمع ولا حضارة ولا شعب لم يكن متأثراً بطريقة من الطرق بافكار الآخرين. فقد جمع الانثروبولجيون ادلة لايرقى اليها الخطـأ علـى الاشتراك في العناصر الحضارية "من قبيلة الى قبيلة، ومن شعب الى شعب ومن قارة الى قارة"، كما يقول بواس. في الحقيقة، ان السمة المميزة التي تجعل الانسان مختلفاً عن الحيوانات الاخرى هي طرق حياته المستندة الى انماط سلوك مكتسبة اجتماعياً بالتعلم. قد يكـون لحيوانات اخرى بعض المبادئ البدائية للحضارة، غير ان السـلوك الاجتماعي للانسان كله حضاري.

اذن، أي مجتمع يختاره المرء لدراسـته، يتضـمن بعـض اشكال السلوك التي ترشحت من الماضي واستعيرت مـن آخـرين. وفضلاً عن ذلك، فان عملية التعلم الحضاري والتكيـف والتركيـب تستمر خلال الزمان في تقدم متواصل. بتـوالي ظهـور التطـورات والتحسينات التكنولوجية، يتوقع الانسان ازدياد انتشار الافكار.

يمكن للمدرس ان يدفع طلاب الصف نحو فكرتنا السادسـة للتفاهم الانثروبولوجي وذلك باستعمال اللغة. وفي الوقت الذي نتكلم فيه اللغة "الانكليزية" فان فحصاً موجزاً لكلمات شائعة الاستعمال لابد ان تشير بوضوح تام الى ان كثيراً من كلماتنـا قـد اقتطفـت مـن حضارات اخرى. يستطيع المدرس مثلا، ان يدرج هذه السلسلة مـن الكلمات في قائمة على السبورة

Alligator, boss,canoe, dachshund, dandelion, depot, egg, giraffe, kimono, kindergarten, Oasis, tat too, tea, toboggan, wagon.

ويمكن للمدرس ان يسأل الصف ان يعينوا الكلمات الانكليزية على السبورة فقط لحذف أي كلمة مأخوذة من لغات اخرى. قد يحصل بعض النقاش وبعض الاختلاف ولكن طلبة الصف قد يتفقون على مجموعة اصغر من الكلمات. بعد ذلك، يتحدى المدرس الطلبة لتعيين مصدر كل كلمة بالانكليزية "لمجرد التأكد".

واخيراً، سيجد الطلبة انه لاتوجد أي كلمة انكليزية نقية في القائمة. **Alligator** مثلاً اسبانية، و **boss** هولندية، و**canoe** هندية اميركية، **dandelion** فرنسية، اسكندنافية **kimonoegg**، **giraffe** عربية، **kimono** يابانية، **kindergarten** المانية **Oasis** عربية، **tattoo** بولينسية، **tea** صينية.

ثم يطلب من الطلبة البحث عن امثلة لاشياء مالوفة لديهم استعيرت من ثقافات اخرى. قد يكتشف الصغار ان بعض حكاياتهم المفضلة. كتبت في بلدان اخرى، امثال، هانسل وگريتل، حساء الحجر، هي مجرد حكايات، البطيطة القبيحة.

يستطيع طلبة المتوسطة ان يتتبعوا اصول مجموعة من اغانيهم المفضلة، ويمكنهم تحري اشياء استعارتها شعوب من مختلف انحاء العالم من الهنود الحمر امثال التبغ والبطاطة والذرة. ويمكن لطلبة الثانوية تقسيم جهودهم. فالبنات يدرسن الاطعمة وطرق الطبخ والملابس واشكال التريف. والاولاد ينظرون الى الالات وطرق الانشاء والرياضة. قد يستفيد طلبة الثانوية من منهج دراسة

هذه الفكرة الاساسية السادسة من موضوعنا. فيستطيعون دراسة التاثيرات الحضارية في مجتمع معين في حقبة طويلة من الزمن. اليابان مثل جيد في هذا المجال. قبل دخول العميد البحري ما تيو پيري خليج طوكيو في الثامن من تموز ١٨٥٣، كانت اليابان قد عزلت نفسها عن بقية العالم نحو ثلاثة قرون. ان قصة تغريبها، أي جعلها متأثرة بالحضارة الغربية، سريعاً، مثيرة. فيستطيع الطلبة ان يحاولوا تفسير تغير بعض التقاليد في اليابان تغيراً عظيماً وبقي غيرها على ما هو عليه. بوسعهم كشف بعض المشكلات التي صاحبت تغيرات حضارية مختارة في اليابان. الهنود الحمر الاميركيون الذين تدرس احوالهم على مستويات مختلفة من المدارس العامة الاميركية، يقدمون فرصاً ممتازة لدرس الانتشار والتكيف الحضاري. فيمكن مثلاً، ان يشير المرء الى الطرق التي استعار بها هنود الاباشي المحاربون المتجولون التقنيات الزراعية من جيرانهم المستقرين، الهوپي، وتعلموا اخيراً استعمال الارض والحيوان بطريقة جعلت طرقهم القديمة في الحياة لاغية، مهجورة. قد يجد الطلبة صوراً للتغيرات العميقة التي حدثت في حياة الهنود الذين أثبتت أراضيهم غناها بالمصادر الطبيعية والذين تبنوا كثيراً من طرق الإنسان الأبيض.

٧- يتكون كل نظام حضاري من شبكة انماط سلوكية متداخلة. لايوجد أي نظام ساكن تماماً. التغيرات الجارية في منطقة ما تؤدي عموماً الى تغيرات في اجزاء اخرى من النظام.

نادراً ما يتغير عنصر في حضارة من غير اجراء تحويرات وتعديلات في عناصر اخرى. يرى كثير من الانثروبولوجيين المجتمع

شبيهاً بنظام عضوي حي معقد حيث يؤثر تغير في عضو احد تأثيراً ثابتاً ونهائياً في الكائن الحي كله. ان إقرار لائحة الحقوق المدنية في ١٩٦٤ اثرت تأثيراً واضحاً وسوف تستمر في تأثيراتها الواسعة الانتشار في المجتمع الاميركي عموماً.

ويجب ان يدرك الاطفال والشباب ان التغير امر حتمي في الحياة- متوقع او غير متوقع، مرحب به او غير مرحب به. وعليهم ايضاً ان يدركوا ان الابداع في اخذ حضارة ما قد يكون له تأثيرات مهمة في جوانب اخرى ايضاً.

ويمكن للاطفال ايضاً مقابلة اجدادهم وجداتهم وناس مسنين اخرين وسؤالهم كيف كانت الحياة حين كانوا صغاراً. ويمكن لكل طفل في الصف ان يشارك غيره في ما وجد. ويمكن للمدرس ان يحث على مزيد من النقاش ويعطيه تركيزاً اكثر بتوجيه اسئلة كالآتية:

- ماذا عرفت عن اشياء كان الكبار يعملونها حين كانوا اطفالاً.
- هل تفعل الاشياء نفسها؟
- لماذا تفرض انك تفعل اشياء كثيرة بنحو مختلف؟
- اتتمنى لو كنت طفلاً في ذلك الحين؟ لماذا ولماذا لا؟
- كيف يشعر الكبار الذين تحدثت اليهم بشأن الاشياء المختلفة اليوم؟
- اتظن ان اطفالك سوف يفعلون الاشياء نفسها التي تفعلها انت الآن؟ لماذا؟

- لماذا تتغير الاشياء؟

يمكن المزيد من ايضاح فكرة التغير بتحـري الكلمـات. يمكـن للمدرس ان يوفر لافراد من الطلبة قواميس جديدة وقديمة، ويقترح عليهم البحث عن كلمات "قديمة" لم تعد تظهر في القواميس السائدة كلمات "جديدة" لايمكن رؤيتها في طبعات اسبق. ويمكن ان يطلب من الطلبة ايضا كشف كلمات مصاغة وجدت لتشخيص آراء ظهرت ولم تكن موجودة، واختراعات، وعمليات وما شابه ذلك. كلمـات مثـل "تلفزيون" و "فوق سمعية" و "سكة حديد احادية"، امثلة على ذلـك. وعلى متسوى ثقافي اعلى يمكن دعوة باحث في علم اللغة من كلية او جامعة قريبة بوصفه مصدراً للحديث عن تغيرات في الكلمـات او اللغة خلال العصور. سوف يتعلم الطلبة ان الكلمة الواحدة نفسها قد يكون لها معان مختلفة من وقت لوقت لآخر.

وعلى الطلبة ان تكون لديهم معرفة بالمواقيت والمواعيد الدقيقة في كل شيء، في القطارات والطيارات والمصانع ودوائـر الدولـة والمدارس والادوات التي تحدد الوقت كالسـاعات وتقـاويم الايـام والاسابيع والاشهر. وان يقارنوا ذلك بوسائل النقل قبـل اسـتعمال السيارة والقطار والطيارة والطائرة، والعربات المستعملة في رحلات المراحل والمنازل التي ترتاح ويرتاح فيها المسافرون، والزمن الذي تستغرقه كل رحلة.

ويمكن ان يدعى الطلبة الكبار لاستكشاف الطبيعة واهمية التغير على اساس ادراك حدس اكثر. فيعطيهم المدرس اسبوعين او ثلاثـة اسابيع لجمع معلومات فردياً ويكتبـوا تقـارير ابداعيـة. ويجيـب المدرس عن الاسئلة المقرر فيها انجاز الاشياء ويساعد الطلبة فـي

تعيين المعلومات التي يطلبونها لكنه لايقدم لهم اقتراحات خاصة بالمحتوى في الحد ذاته.

فيما يأتي صورة توضيحية لنمط من المواقف التي يمكن للمدرس ان يبدأ بها:

"انه اليوم الخامس من تشرين الثاني سنة ٢١٤٧. وهذه مناسبة تاريخية لجميع سكان الارض. قبل اربع سنوات عقد مؤتمر "اسكان عالمي يشمل جميع امم العالم التي تعاني مشكلات سكانية. تكونت لجنة بحث من صفوة العلماء والمهندسين والمعماريين والاطباء والمختصين بالصحة والنظافة الصحية والمختصين بالتغذية وغيرهم من اجزاء الكرة الارضية، تمولها الامم المساهمة. اقترحوا تصميم مدينة جديدة كلياً تستوعب إسكان عدد كبير من الناس في فضاء محدود ومكان كان يعد "غير صالح للسكن" بسبب مناخه وتربته وابتعاده، الخ...

سوف تفتح اليوم ابواب المدينة الجديدة وسوف يشغلها رواد من اقطار كثيرة تطوعوا للعيش فيها ثلاث سنوات في اقل تقدير او ربما طوال حياتهم اذا كانت التجربة ناجحة. يبدو ان كثيراً من المشكلات التقنية قد حُلّت. المدينة تحت قبة زجاجية، فيها تكييف هواء شامل، وتستخدم الطاقة الشمسية، وتنقية الماء المالح الذي يجهز خلال انابيب من البحر المحيط. وفيها حدائق كيمياوية" خاصة يمكنها ان تنتج اطعمة يحتاجون اليها بسرعة فائقة. الخ...

انت انثروبولوجي، دعيت للعيش مع سكان "مدينة العالم: كما اطلق عليها. ليس فها حكومة مفروضة ولا دين شامل، ولانظام قوانين منسق، ولا مجموعة من التقاليد.

ما هي بعض التحديات التي سيواجهها الناس، والمشكلات التي تعترضهم، والتغيرات في السلوك والقيم التي يمكن ان تشاهدها، وغير ذلك؟"

ثمة طرق كثيرة يمكن للمدرس ان يساعد بها طلابه لفهم ان تغيراً في جزء من نظام حضاري يمكن ان يؤدي الى تبدلات في اجزاء اخرى من النظام. ويمكن ان يسأل تلاميذ الابتدائية، مثلا، ان كان لهم اخوة او اخوات في البيت. اطفال هذه المجموعة العمرية لديهم فرصة جيدة مألوفة لديهم، ماذا يمكن قدوم طفل جديد في العائلة ان يفعل في تغيير كثير من معالم الحياة العائلية. يشجع الاطفال ان يفكروا بعدد الفروق في الاشياء التي في البيت قدر الامكان التي تنتج من مثل هذا التغير. قد يذكر بعض التلاميذ نقاطاً مثل ما يأتي:

- صار لأمي شغل كثير- تحضير قنينة الرضيع، تغيير ملابسه، غسل حضائنه (حفاظاته)، وما شابه ذلك.
- ليس لابي وقت كافٍ بالنسبة اليّ كما كان يفعل سابقاً.
- يساعد امي في اطعام الرضيع وهدهدته.
- لم تعد لي غرفة خاصة بي بعد هذا.
- لانذهب بالسيارة كما اعتدنا قبل هذا.
- صار كثير من الناس يزوروننا ليروا الطفل الجديد.
- صرنا نتناول الغداء في أي وقت الان.

يمكن حث اعضاء من طلبة الصف ان يفكروا بمواد اخـــرى ادت الى حدوث تغيرات اوسع في حياتهم. في منطقة لقطـــع الاخشـــاب، مثلا، يعني انقطاع المطر مع احتمال حدوث حريق في الغابة توقــف عمليات نشر الاخشاب وتزايد البطالة انخفاض العمل، ترشيد ميزانية وجبات الطعام، الامتناع عن حضور حفلات اعياد المـــيلاد، وغيـــر ذلك.

طريقة اخرى مناسبة لطلبة المتوسطة والاعدادية، هي اعطـــاء كل طالب بطاقة ٣ × ٤ عليها اسم احد الاختراعات. يطلب من كـــل طالب ان يكشف بعض التأثيرات الفكرية والاجتماعيـــة والسياســـية والاقتصادية والمالية للاختراع ويشارك بقية طلاب الصـــف بنتـــائج البحث. مكائن الطباعة، التلسكوب، محلجة القطن، الماكنة البخارية، بئر النفط، المحرك الكهربائي، التلفون، الثلاجة والمفاعـــل الـــذري، امثلة واضحة اخرى على الاختراعات التي يمكـــن اســـتعمالها. واذا كان للطلبة ميل للحديث عن النتائج الايجابية فقط للاختراعات، فـــان المدرس يمكن ان يطلب بيان المشكلات التي تصـــاحب الاختراعـــات المذكورة. وفي حالة ماكنة الاحتراق الداخلي، مثلاً، يمكن ان يتوصل الطلبة الى ملاحظة ان حوادث الســـيارات، والاصـــابات والمـــوت، وابخرة اول اوكسيد الكاربون في المدن، وتفكك محتمل فـــي وحـــدة العائلة، يمكن اخذها بنظر الاعتبار.

نشاط آخر يتصل بالفكرة الاساسية السابقة يمكن تطـــوره مـــن البحث الانثروبولوجي الواقعي. يمكن للمدرس ان يبحث عن دراسات لحضارات مختلفة حيث كانت الطريقة العامة للحياة متأثرة باكتشاف او تحوير او تطوير او فقدان عامل خاص. ويمكن شـــمول مصـــدر

طبيعي، حاصل زراعي، او انتاج، عملية، فكرة او معتقد. يمكن للمدرس ان يقدم وصفاً متقناً للحضارة ولهذا البعد الواحد الذي يقرؤه بصوت مسموع على طلبة صفه، او اعطاءهم نسخة من ذلك للاستعمال الصفي. مثال ممتاز على هذا النوع من المادة الذي يمكن للمدرس استعماله هو هذا الوصف الذي كتبه الانثروبولوجي لوريستن شارب بعد عمله الميداني مع مجموعة من سكان استراليا الاصليين.

"مثل جماعة يير يورونت عند مصب نهر كولمن في الساحل الغربي لشبه جزيرة كيب يورك الاستوائية، كمثل سكان استراليا الاصليين الآخرين لم يكن لديهم اصلاً أي معرفة بالمعادن. كانت حضارتهم، تكنولوجياً، من العصر الحجري او من النمط الحجري القديم، ويعولون على صيد البر والبحر، ويحصلون على الاطعمة النباتية والمواد التي يحتاجون اليها من الغابة بوسائل جمع بسيطة. وكان الحيوان المدجن الوحيد لديهم هو الكلب. ولم تكن لديهم نباتات مدجنة من أي نوع. وعلى خلاف بعض السكان الاصليين الآخرين، كانوا يستعملون فؤوساً حجرية صقيلة لها مقابض يدوية قصيرة، وكانت هذه الادوات مهمة جداً في اقتصادهم.

كان انتاج فأس حجرية يتطلب عدداً من المهارات البسيطة. وكان الرجال البالغون وحدهم هم الذين يصنعون الفاس، وكان إنتاجها لا يعدّ مناسباً للنساء والاطفال.

ان استعمال الفأس الحجرية اداة اساسية لانتاج سلع اخرى يدل على أهميتها العظيمة في اقتصاد السكان الأصليين في وجودهم.

كان الحجر الذي يستعملونه يأتي من مقالع تبعد أربع مئة ميل الى الجنوب.

وهكذا فان العلامات التجارية التي تمد علاقات الفرد الشخصية أي ما رواء جماعته الخاصة، ترتبط بأهم مادتين في معدات الانسان: الرماح والفؤوس.

كانت الفأس الحجرية رمز الذكورة بين يير يورونت من السكان الاصليين في استراليا (مثل البنطلون او الغليون بيننا). بمجموعة معقدة من الافكار التي نعين بها "ملكية" الفأس عرّفت بأنها "ملكية تعود للذكور".

وبزيادة الاتصال بالأوربيين ادخلت الفؤوس الفولاذية الى حضارة الييز يورونت. ولايوفر المدرس معلومات بعد هذه النقطة ويسأل طلبته ان يكتبوا ماذا يظنون ستكون النتائج التالية لهذا التغير. بعد ذلك تقارن افكار الطلبة بالتطورات الفعلية.

يمكن للمدرس ان يقرأ لطلبة الاعدادية، مقاطع من اعمال قصصية مثل "اللؤلؤة" تأليف جون شتاينبك للوصول الى هذا التعميم الانثروبولوجي.

" رأى كينو في اللؤلؤة كيف كانوا يلبسون- جوانا في شال جديد وتنورة جديدة، ومن تحت التنورة الطويلة استطاع كينو ان يرى انها تلبس حذاء. كان ذلك في اللؤلؤة- الصورة تتوهج فيها. هو نفسه كان يلبس ملابس بيضاء جديدة، ويحمل قبعة جديدة- ليست من قش بل من لباد اسود جميل- وهو أيضاً يلبس حذاء- وليس نعالاً بل حذاء مخرمٌ. ولكن كويو تيتو كان يلبس بدلة بحار زرقاء من الولايات المتحدة وقبعة يخت كالتي رآها كينو ذات مرة حين دخلت

سفينة ملذات مصب النهر. رأى كينو كل تلك الأشياء في اللؤلؤة الشفافة. وقال: سوف تكون لدينا ملابس.

ثم جاء الى وجه اللؤلؤة الرمادي الجميل الاشياء الصغيرة التي ارادها كينو: رمح لصيد الحيتان بدل رمحه الذي فقده قبل سنة، رمح جديد من حديد، له حلقة في طرفه، ووثب عقله بمشقة- بندقية، ولكن لماذا لا، ما دام غنياً. ثم كينو رأى كينو في اللؤلؤة، كينو يحمل بندقية قصيرة. انه حلم يقظة جامح وسار جداً. تحركت شفتاه مترددتين على ذلك قائلاً "بندقية، لعلها بندقية."

" اللؤلؤة تغير حياة كينو بلا ريب، ولكن ليس كما يأمل.

٨- مدركات ونزعات وقيم تعقد دراسة الانسان للانسان.

من الصعوبة الفائقة على كائن بشري فرد ان يلاحظ ويصف ويحلل السلوك العلني لشخص آخؤ بأسلوب موضوعي تام. نصيحة سقراط: "اعرف نفسك" ومع ذلك فان معرفة النفس ليس من السهل تحقيقها. اذا لم يكن الشخص قادراً على تشخيص وفهم كثير من دوافعه وخصائصه وافعاله واحكامه الخاصة فكيف يستطيع ان يأمل في بلوغ ماهية شخص آخر؟ خصومة متزوجين حديثاً اول مرة، حموات (امهات الزوج والزوجة) يتجادلن على الاسماء المقترحة لاول وليد، ومراهقون يلتمسون والديهم لاشياء جديدة، كل ذلك يجعل المرء يسأل هل الاتصال الاصيل حتى بين اعضاء العائلة ممكن. هل يستطيع كل شخص ان يتغلب على العوائق الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والدينية والعرقية والعنصرية والتراثية والشرعية والاخلاقية والفكرية والقومية التي يقيمها الافراد والجماعات

والمجتمعات؟ هل الموضوعية والتفتح العقلي والحساسية والتقمص العاطفي ممكن في أي مكان واي مستوى؟

اننا نعتقد ان التعرض الى بعض أساسيات الانثروبولوجيا يجب ان يحوي شعوراً نحو المهمات الهائلة التي تواجه الانثروبولوجي. ان النشاطات المذكورة لاتدعي تعليم الصغار كيف يديرون حتى ابسط شكل من البحث الانثروبولوجي. اننا غير متأكدين ان كان ذلك مرغوباً فيه او ممكناً، إنما نحن نأمل فقط في التأثير في الأطفال والشباب لكي يتحلوا بالصبر والأصالة والموضوعية والبحث المطلوب من انثروبولوجي متدرب.

يمكن تعريض الطلبة في مستويات تطورية مختلفة الى سلسلة من السلوك غير المألوف لديهم بواسطة كتاب او فيلم او سلسلة من صور فوتوغرافية او تسجيلات او ملاحظات فعلية. شكل من اللعب او العمل. مهرجان او نشاط في يوم عطلة، خطاب او تمثيل مسرحي. وظيفة سياسية، او تنصيب، افتتاح، تتويج، او احتفال ديني يمكن اختياره. بعد النشاط السمعي- البصري، يشجع كل طالب على وصف ما سمع او رأى. ويرشد طلبة الصف لعمل تقارير واقعية وموضوعية قدر الإمكان- محاولين تجنب الايضاح او التفسير او الحكم على القيم. بعد المناقشة مباشرة، يملأ المدرس التعاقب السلوكي بمعلومات إضافية جمعها. ثم يطلب من الطلبة إيجاد الأغلاط في الملاحظات أو الأدلة على الانحياز الحضاري في تقاريرهم. ثم يعاد النشاط السمعي- البصري، تعد المجموعة تقريراً جديداً، موجزاً منقحاً ودقيقاً.

شيء آخر يمكن للمدرس ان يجعل طلابه يقترحون مواقف متنوعة كونتها حضارتهم. يمكن للاطفال تقديم جمل مثل ما يأتي:

- يجب ان تعمل بجد لكي تتفوق وتصنع شيئاً من نفسك.
- يجب ان تقول الحقيقة دائماً.
- يجب ان تكون مضبوط المواعيد.
- يجب ان تكون رياضيا جيداً ولاتكون ابداً خاسراً سيئاً.
- يجب ان تلتزم بدورك.
- يجب ان تحب وطنك.

خذ الجملة التي تبين اهتمام الصف بها اكثر من غيرها (او دع كل طالب يختار جملة تروق له) ويمكن للمدرس ان يعطي واجباً لكل تلميذ يؤديه في الصف او في البيت:

اكتب جملتك من على السبورة ثم اجب عن هذه الاسئلة:

- ماذا تعني هذه الجملة لك؟
- هل فكرت مرة بهذه الفكرة؟ هل تظن انها حقاً مهمة؟ (لماذا؟ ولماذا لا؟ هل تعمل دائماً ما تقوله لك هذه الجملة؟ (لماذا؟ لماذا لا؟)
- من علمك هذه الفكرة ومتى؟ اين تعلم الشخص (او الاشخاص) الذي عملك هذه الفكرة؟
- هل جميع ابناء بلدك يعتقدون بان هذه الفكرة مهمة؟ (لماذا؟ لماذ لا؟)

- هل هذه فكرة جديدة؟ من اين اتت؟ هل ظلت على ما هي عليه ام تغيرت من وقت الى وقت آخر؟

اعتماداً على نضج طلبة الصف والموضوع على مستويات مختلفة من الفهم، يمكن للمدرس ان يقود الطلبة على عدد مهم من الافكار العميقة. لعل الطلبة يرون انهم يعتقدون بأشياء كثيرة لم يدرسوها بعناية. ولعلهم يشيرون الى بعض التناقضات في سلوكهم ويحاولون توضيح سبب حدوث ذلك. ولعلهم يجدون ان عوامل مختلفة (العائلة، المدرسة، الكنيسة، جماعة نظيرة، الخ...) يؤيدون بعضهم بعضاً في بعض الافكار نفسها ولكن لعل لهم طرقاً مختلفة او مناقضة لمفاهيم او معتقدات اخرى. قد يكتشف الطلبة ان قيماً معينة ترى مهمة في بيوتهم وليست كذلك في بيوت طلبة آخرين يداومون في المدرسة نفسها. قد يعرفون ان بعض الافكار جديدة نسبياً وغيرها قديمة جداً. يجب ان يلاحظوا كثيراً من المفاهيم "الاميركية جاءت من جميع انحاء العالم. حين تكون لدى الطلبة افكار معينة، فانهم سيعرفون ان تغيرات حدثت بمرور السنين: (فمثلاً في مدارس "الترديد بصوت عالٍ" كان يفترض في الاطفال ان يدرسوا دروسهم بصوت مسموع لكي يتأكد المدرس انهم جميعاً يعملون. السكوت يعدّ مشكوكاً فيه). لعلهم يستطيعون توضيح بعض هذه التغيرات ولكنهم قد يكونون غير قادرين على ايجاد اساس منطقي لغيرها.

في كل هذا، يجب على الطلبة ان يكونوا قادرين ان ينظروا بادراك عميق وموضوعية اكثر الى الاشياء التي يقولونها او يفعلونها. لعلهم يرون مدى صعوبة درس حضارتهم الخاصة- بغض النظر عن حضارات الآخرين. ولعلهم يكونون اكثر ميلاً الى تقديم

تفسيرات واحكام عاجلة. اذا اثبتت الطريقة الملخصة هنا ان تثبت انها مثمرة، فان المدرس يمكن ان يدفع الصف الى التحري عن فكرة باقية في حضارة اخرى تناقض فكرة ادرجوها في القائمة. مرة اخرى، النقطة هي فهم الفكرة وتوضيحها باخلاص وعدم نفيها او الاستهزاء بها.

ثمة انواع مختلفة من الكتب التي يمكن للطلبة الكبار قراءتها لفهم كيف انجذب الانسان لدراسة الانسان، الطرق التي حاول توجيه هذه الدراسة، وبعض المشكلات، التي واجهها في جهوده لجمع وتنظيم ومعالجة وتحليل المعلومات موضوعياً.

ويجب تجنب المصادر العالية التقنية في هذه المرحلة. ولعل من انسب الكتب لنقل الفكرة هذه وجلب القراء من الطلبة الى لمستها في المغامرة هو كتاب "كون تيكي" تاليف ثور هايردال (جاء ثور هايدرال الهولندي الى العراق واراد اثبات ان اهل العراق القدامى جابوا البحار البعيدة ولعلهم وصلوا آنذاك الى ما يسمى اليوم اميركا. في سفن مصنوعة من البردي. فصنع هايردال في جنوب العراق سفينة من البردي وأبحر بها وكان معه رشاد ابن الاديب الرسام نزار سليم، ووصلوا الى بحر العرب وهناك انهى رحلته ليثبت صحة نظريته- المترجم). يستطيع الطلاب من خلال كتاب "كون تيكي" الانتقال من الفكرة التي استوقفت المؤلف- ان الصور الحجرية الضخمة في غابة تيكي كانت تشبه الصور التي خلفتها حضارات منقرضة في اميركا الجنوبية- يستطيعون الانتقال الى رحلة المؤلف وملاحظاته. وان لم يكن شيء غير ذلك فان الطلبة سوف يتأثرون بما تحمله هذه المجموعة من الرجال لاختيار نظرية معينة!

طريقة أخرى لمساعدة الطلبة في رؤية مستويات مختلفة من الموضوعية والحنكة والتدريب المتعلق بدراسة الإنسان ستكون امام المدرس ليبدأ بحث صف كامل عن كثير من الأساطير والقصص والأوصاف والتقارير واليوميات والسير الذاتية، الخ... التي كتبها شعراء ومؤلفون نظريون ومستكشفون وجنود وقادة بحريون وتجار ومبشرون وأطباء وسفراء وانثروبولوجيون. كتاب في هذه المجموعة "يجب" قراءته هو "رحلات ماركو بولو". سيجد الطلاب في هذا الكتاب خليطاً مذهلاً من الأمور الموضوعية والذاتية والواقعية والأسطورية والرائعة التي لا تطاق. ويجب ان يكونوا منتبهين الى أقوال شاملة عن جماعات كاملة من الناس تسمهم بأنهم "مجردون من المبادئ الخلقية،، "غادرون" ، "لا أباليين" وغير ذلك. ويجب ان يتأملوا ملياً بأسطورة الاسكافي الذي حرك بأيمانه جبلاً من مكانه فعلياً، والتقرير عن أرواح شريرة، خادعة، مدمرة في الصحراء، وسحر المشعوذين السحرة في المأدبة الذين استطاعوا ملء اكواب شراب تلقائياً وجعلها تنتقل في الهواء الى يد قبلاي خان. يجب ان يلاحظوا كيف ان ماركو بولو يصرف النظر عن مقاطعة كاملة باقل من مئة كلمة، مشيراً الى "عدم وجود ما يستحق الذكر" ومن الناحية الاخرى عليهم ان يروا قابليته في ملاحظة الاشياء النافعة والجميلة في اماكن مختلفة، وتقدير مهارات الناس في التنظيم والادارة والزراعة والصيد وغير ذلك، ممن شاهدهم واشتغل معهم مدة من الزمن.

مدرس اعدادية مع طلبة صف نشيطين يستمتعون بالدرس يود ان يبين لطلبته شعور التعقيد في دراسة الانسان للانسان وذلك بيدء

مشروع يدرس به طلبة الصف المدرسة بوصفها مجتمعاً. يتظاهر الطلبة انهم فريق بحث انثروبولوجي مبعوث من بلد آخر لدراسة سلوك المراهقين في مؤسسة تربوية اميريكية. يشخص الطلبة مجالاً للدراسة، مثل عمل الصف الدراسي، السلوك الانعزالي، الالعاب الرياضية المدرسية والفريق الرياضي المنتخب، عادات الاكل، الانماط اللغوية، طقوس الانتقال، طقوس الابتداء، النوادي، الزمر، وغير ذلك. يصاغ اسم الجمعية من اسم المدرسة. تجمع المعلومات الواقعية من استعراض الحوليات المدرسية (عن المعلومات والاحصاءات)، مقابلة الاداريين والمدرسين والمدربين والطلبة، ملاحظة الظواهر بطريقة قصصية وهلم جرا. مرة اخرى، نقول ليست الفكرة تدريس طرق البحث، باي حال من الاحوال، بل مجرد اعطاء الطلبة فرصة لرؤية مدى الصعوبة في النظر الى السلوك البشري بانه حقيقة وليس شيئاً تخمينياً على غرار قيم المرء الخاصة .

كل مجتمع يقدم بعض الفرص لتعلم الانثروبولوجيا. فبوسع الاطفال والشباب محاولة النظر الى كثير من معالم مجتمعهم بطريقة موضوعية. وفضلاً عن الحوادث الوثيقة الصلة بالانثروبولوجيا الحضارية، يمكنهم ان يجدوا أن شيئاً من البحث الآثاري النظامي يجري تنفيذه في المجتمع. فمثلاً، بعد ثلاثة اسابيع من التنقيب، اكتشف اثاريو جمعية منيسوتا التاريخية حديثاً جداً اسس ومصنوعات "معسكر نيو هوب" على الضفة الجنوبية لنهر منيسوتا قرب الطريق الغربي لجزيرة پايك. كان المعسكر قد شيد في ١٨١٩. وماتت اعداد كبيرة من الجنود بالملاريا والاسقربوط في منطقة المستنقعات ومن تعرضهم لسوء الاحوال الجوية وسوء التغذية في اثناء الشتاء. فاصبح المعسكر مهجوراً. فتهدم وآل الى الخراب وعفت عليه فيضانات الربيع وغطاه الغرين. يستطيع الطلبة ان يروا

كيف جرى التعامل مع هذا الاكتشاف. فيمكن بترتيبات مناسبة ان يسمح لبعض الطلبة ان يساعدوا في التنقيب الواسع تحت ارشاد احد الآثاريين.. في هذه المرحلة، الشيء المهم بالنسبة اليهم الانشغال قليلا في دراسة الانسان.

استنتاج

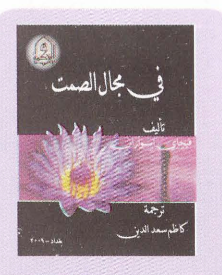
تستنتج كورا دوبوا في دراستها الكلاسيكية (شعب ألور):
"ان الحقيقة البديهية في العلم انه كلما زاد المرء معرفة زاد المشكلات التي تظهر تعقيداً.

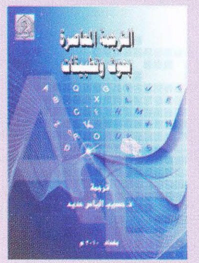
ان الانثروپومورفيزم (التشبيه أي اضفاء صفات الانسان على الحيوانات او الالهة) والاثنوسنتوزم (أي الاعتداد بالجماعة) هما على حافة ان تكون فوق الوجود المادي حتى في العلم. لقد فتحت ابواب لحجرات لم تبن.

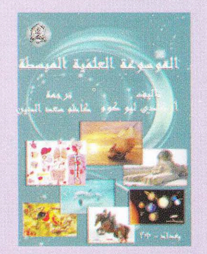
لعل هذا الكتاب نجح في فتح بعض الابواب لقرائه. وليس بوسع مجلد واحد ان يتناول بدقة الميدان المعقد للانثروبولوجيا، ونحن لاندعي اننا نفعل ذلك هنا. من ناحية اخرى، نأمل مخلصين ان يكون بعض المفاهيم الاساسية للانثروبولوجيا والافكار العميقة. والالهام قد توضحت وافعمت بالحيوية في هذه الدراسة الموجزة.

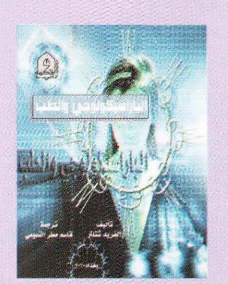
اننا نعيش في زمان يحتاج فيه الانسان حاجة ماسة الى فهم زملائه. ويعتمد مسقبله على مثل هذه المعرفة. الحضارة بالمعنى الواقعي هي امل الجنس البشري. وكما قال مالينوفسكي "الحضارة تهب الانسان الحرية بالسماح له ان يتحكم في مقدراته". فاذا كانت القسوة والتعصب الاعمى والانانية وعدم الاحساس متوارثة من الآباء الى الأبناء، ومن جيل الى جيل، فان اليأس يصيبنا في عدم تحسين احوال البشر. ولحسن الحظ، فأن الامر ليس كذلك. ان البشر الذين يعيشون على هذا الكوكب قادرون على تغيير نمط سلوكهم واغناء نوع العيش للمجتمع. وسواء ارضي للانسان ام رفض فان هذه المسؤولية والفرصة مسألة عصرنا الحاسمة.

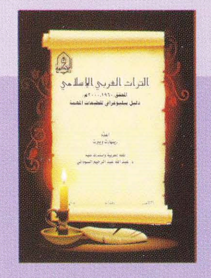
The Study of Anthropology
By Pertti j.Pelto
Department of Anthropology
University of Minnesota, 1965.











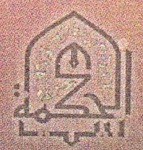


اصدارات بيت الحكمة

هذا الكتاب

ان اختراعات واكتشافات سكان بلاد الرافدين انتشرت انتشاراً واسعاً في العالم القديم.

وظهر من الادلة الاثرية ان الحضارات القديمة في مصر والهند وحتى الصين كانت نتيجة انتشار تلك الابتكارات الستراتيجية - الزراعة وصناعة المعادن وحفظ السجلات - من مهد الحضارة الاصلي، بلاد الرافدين.



E-Mail:-baytal_hikma@yahoo.com
Website:-www.baytalhikmairaq.org

رقم الإيداع (١٥١٢) لسنة ٢٠١٠

تصميم/ عمر عادل عباس